الفصل الأول

الأصول الأسطورية للصورة

مصـــادر صـــورة النار

تُعَدُّ النـار- بوصـفها ظاهرة عرفهـا الإنسـان الأول- مـن أهم وأخطر اكتشافاته وقد عُرِفَـت بأنهـا الاختـرَع العظيم للجـنس البشـرى([1]) والتعـرف علـى النـار علامـة واضـحة، وخطوة حضـارية لهـا أبعادهـا الثقافيـة([2]) واكتشـاف طريقـة للحصـول عليهـا يمكـن وصـفه بأنـه مـن أهـم خطـوات الجـنس البشـرى علـى طريـق التقـدم،([3]) حيـث انتقـل الإنسـان باكتشافها من عصر كله حرمـان إلى عصر استمتع فيه بأسباب الراحة والرفاهية الناتجة عن تسخير لها فهى القوة المبدعة فى الإنبات ومعادل للماء،([4]) بل عدها بعضهم الأولى لبداية الأشياء، وبها توجد كل الأشياء ([5]) 0

ونحـن لا نـذهب بعيـداً إذا قلنـا بـأن النـار هـى بالضـبط الموضـوع الأول أو الظـاهرة الأولى التـى انعكسـت عليهـا روح البشـرية، والنـار مـن بـين جميـع الظـاهرات هـى الظـاهرة الوحيدة فى نظر إنسان ما قبل التاريخ التى تستحق الرغبة فى المعرفة.([6]) وقد بلغ الأمر بجاستون بشلار إلى أن جعل استخدام النـار فاصلا بين الإنسـان وغيره مـن المخلوقـات

- standard dictionary of folklore, mythology and legned ed Maria lech (1) funk and Wagnall company 1949 p 388

(٢) -the ency – Americana – international e dition – ncwyork pan - American 1983 vol "1" p "24"

(٣)

- the ency of religion and ethics - NewYork1913v "6"p"26""73"

4 - - dictionary of symbols and imagery. Ad peveries no 2 th Holland publishing company – Amesterdam – London 3ed 1981 p "187"

(٥) - man myth and magic kathrinela law preanting – from Kathleen briggs-collction 1889 – 1090 p"975"

(٦) النار في التحليل النفسي : جاستون بشلار. ترجمة نهاد خياطة، دار الأندلس – بيروت ١٩٨٤ م ص ٥٣

كالنطق والتفكير قائلاً : " ولقد طالما تكرر على مسامعنا أن غزو النار قد فصل الإنسان عن الحيوان فصلاً نهائياً،([٧])

وعلى هذا يمكن تعريف الإنسان وتمييزه عن الحيوان بأنه كائن مستخدِمٌ للنار، ومن هنا تأتى أهمية معرفة كيف تصنع النار بقدر لا يقل عن أهمية اكتشافها، وذلك لما تقدم من تقريرات عن أهمية النار واستخداماتها الحيوية، ولما أضافته ولا تزال تضيفه إلى حياة الإنسان من راحةً ويسرٍ فى مأكله الناضج ومشربه الدافئ وتدفئة الجو، وإضاءة الليل حوله.

ولا يقتصر هذا الفضل على الإنسان البدائى فحسب بل امتد إلى يومنا هذا، وفى أكثر الشعوب تقدماً، فالإنسان مَدينٌ للنار بكثير من الخدمات، والإنسان إذا لم يوقد النار أثناء حياته فى فترة ما كانت هذه الفترة فترة قحط وشدة وشظف عيش، يشهد على ذلك قول عائشة – رضى الله عنها – وهى تصف لعروة شدة عيشهم وقلة المؤنة فى بيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قائلة :

" والله يا بن أختى إنْ كنا ننظر الهلال إلى الهلال ثم الهلال : ثلاثة أهلة فى شهرين وما أوقد فى أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار" ([٨])

وهذه إشارة إلى أهميتها ودلالتها على الراحة ويسر العيش، ولذا قال جيمس فريزر: " إن إشعال النار أهم وأغنى المخترعات الإنسانية" ([٩])، ويشير قاموس الكتابِ المقدس إلى ذلك قائلا : "ومنذ ذلك الحين – اكتشاف النار – والنار من المواد الاساسية فى الكون بل هى

---

(٧) نفس المصدر ص ٥٣

(1) رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين للإمام النووى، دار إحياء الكتب العربية القاهرة د.ت ص٢٤٢

(٢)-أساطير في أصل النار: جيمس فريزر ترجمة يوسف شلب الشام.دار الكندى دمشق ١٩٨٨ ص٧

ركنُ من المثلث الأساسى : " الماء- الهواء – النار" ويتكلم الكتاب المقدس عن الفوائد المتعددة للنار وطرق استعمالها٠(١٠)

ومن هنا حفرت النار لنفسها مكاناً فى حُلَدِ البشرِ فلا يكاد يستغنى عنها شعب بدائياً كان أو متحضراً وفى أمسِّ أمور حياته المعيشية، فهى علامة على استمرار الحياة فى أى منزل وفى كل الحضارات، فالتسمانيون لم يسمحوا لنيرانهم أن تترك منازلهم، كما أن مدفأة المنزل فى كوريا لا تطفأ أبداً، وفى الريف الأوربى وفى روسيا وبلغاريا كانوا يرفعون النار حتى جعلوها فى المبدأ الأبدى، والإسرائيليون حملوا معهم نيرانهم فى مصر والريفى الروسى حمل نارة إلى دارة الجديدة أينما وصل قائلا : " مرحباً بك جدى فى دارك الجديد " (١١) وقد تطورت هذه المكانة لأهمية النار والحصول عليها وطرقه ليس فى حدود الاستخدام النفعى الحياتى فحسب، بل أخذت شكلاً ثقافياً فى الحضارات القديمة٠(١٢)

لقد أحبها الإنسان واستأنس بها ووجد راحته عندها وروى الجاحظ : أن أعرابياً اشتد عليه البرد فأصاب ناراً فدنا منها ليصطلى بها وهو يقول : اللهم لا تحرمنيها فى الدنيا ولا فى الآخرة" (١٣)

وهذا المثل يقال حتى اليوم على نفس الشاكلة: " اللهم لا تحرمنيها وأبى " أو " اللهم اجعلها مثواى وأبى"، ولا تتوقف النار عن سريانها فى العقل الإنسانى مسيطرة على أفكار الإنسان ومشاعره حتى كانت عامة تشمل أكثر من ظاهرة طبيعية ونفسية، وتجتمع فيها المتناقضات فهى تهيىء أدوات فى مختلف الميادين" الحرارة – والنار" – حيث أنها تتيح

---

(٣) قاموس الكتاب المقدس ٠د٠بطرس عبد الملاك وآخرون – مكتبة المشعل بيروت ١٩٨١ المادة "نور" ص ٩٨٣

(٤)- Ehcy religion and ethics. Vol "6" p "27"

(٥) المصر السابق p "26"

(٦) الحيوان للجاحظ تحقيق د٠ فوزى عطوى، دار صعب بيروت ١٩٨٣ حـ ٥ ص١٧٨: ١٧٩

المناسبة لذكريات لاينالها البلى، فالنار ذات امتيان تفسر كل شيء :" فهى الحى الأعلى، وهى داخلية وخارجية، تحيا فى قلوبنا وتحيا فى السماء، تصَّاعد من أعماق الجوهر وتتبدى لنا حباً، ثمّ تعود فتهبط فى قلبِ المادةِ، وتختفى كامنةً منطوية كالحقد والانتقام، وهى الوحيدة من بين جميع الظاهرات التى يمكنها أن تتقبل كلتا القيمتين المضادتين:" الخير والشر"(١٤)

أنها تتألق فى الفردوس وتستعر فى الجحيم، عذوبة وعذاب، مسرة للطفل يجلس وديعاً قرب الموقد غير أنها تعاقب على كل عصيان إذا ما أريد الدنو منها كثيرا والعبث بلهيبها، هناءةٌ واحترام إله حارس ورهيب، طيب وخبث، يمكن أن تتناقض مع نفسها لذلك كانت ولداً من مبادئ التفسير العلمي(١٥)

وقد ساد الاعتقاد زمناً طويلاً بأنَّ حلَّ اللغز المركزى للكون يتوقف على حل لغز النار لدرجة أن " بربرهاف" قال فى سنة ١٧٢٠م :" إذا أخطأت فى تبين طبيعية النار امتد بك الخطأ إلى جميع فروع الفيزياء، وما ذلك إلا لأن النار دوماً هى العامل الرئيسى فى جميع ما تنتجه الطبيعة(١٦)

وعلى الرغم من مكانة النار التى طرحتها الظاهرة النارية كمسألة أساسية على النفس البدائية، كان العلم المعاصر يضرب صفحاً عنها، وقد شهدت كتب الكيمياء على مر الأزمنة تناقضا تدريجيا فى الفصول المعقودة عن النار(١٧) النار لم تعد موضوعاً علمياً، ويذكر جاستون بشلار معقباً على كلامه :" حين يعرض لنا أن نتوجه إلى

---

(١) Ency – of Religion v "6' p "27"

(٢) النار في التحليل النفسي : جاستون بشلار، ترجمة نهاد خياطة ص ١١

(١٦) المرجع السابق ص ٥٨

(١٧) نفسه ص ٦

بعض المثقفين لا إلى بعض العلماء، كما فعلت ذلك مرارا بسؤال عن ماهية النار تأتى الأجوبة غامضة أو حشوية تعيد لا شعوريا أقدم النظريات الفلسفية وأشدها إيغالاً "في الأوهام"٠

وقد لاقى الباحث فعلاً مثل هذه الظروف فى المراحل الأولى من البحث، فإذا كان هذا شأن إنسان العصر الحديث، فما بالنا بالإنسان البدائى؟ بكل ما تعنيه كلمة (البدائى)، فهو الذى لا يملك تفسيراً للظواهر حوله إلا انطباعاته النفسية ودوافعه الروحية نحو الأشياء حوله فاتخذ الآلهة وتشبثَ بالأساطير، من هنا التحقت النار بركب الأساطير فى نشأتها وأصلها وغموض أسرارها وعلاقتها بغيرها من ظواهر الكون، كل ذلك الغموض كان له أثره فى تفكير الإنسان تجاه ظاهرة النار وانفعالاته بها٠

ولذا كان حتماً على البحثِ فى صورةِ النار عند شعراء الجاهليين أن يعود إلى الأسطورة علّها تفسر بعض الغموض فى ظاهرة النار وهنا يأتى دورها كما يقول جيمس فريزر: " ومن أجل أن يكون تاريخ الفلسفة وتاريخ العلم تاريخاً كاملاً غَير منقوص ينبغى علينا أن نبدأ بعرض للميثولوجيا " ([١٨])، والميثولوجيا هنا تحل كثيراً من الرموز لهذه الظاهرة فهى أداة كشف وتعليل لكثير من قضايا الإنسان، والأشياء التى تلعب دوراً أساسياً فى حياته،" فعن أسطورة الأصل الأساسية تتفرع مجموعة الأساطير للأصول الثانوية التى تحكى بدايات الأشياء التى تلعب دوراً أساسياً فى حياةِ الإنسانِ كالزراعةِ والكتابةِ والسدود ----- وما إلى ذلك، وأن معظم ما يستعمله الإنسان ويفيد منه فى حياته وحضاراته إنْ هو إلا إنتاج نموذجى بدئى مقدس صنعته الآلهة بيدها أو أوحت

(١٨) أساطير فى أصل النار جيمس فريزر ترجمة يوسف شلب الشام، مرجع سابق ص ٦

به"([١٩]) وبهذا المنطق تكون النار أحد هذه الأشياء التى لها ممارسات طبيعية تسترعى انتباه البدائى وتجبره على تعليلها، فالرغبة فى المعرفة وتفسير الظواهر الخفية والأرواح والكائنات السحرية وخلق الكون والقوى المحركة له، فما الماء؟ وكيف جاء----؟ وما النور؟ومن يتسلط عليه---؟ وفيم تفجرَ الأرض بالنار واندلاع البرق---؟ كل هذه التساؤلات صنعت ما يمكن تسميته الأسطورة التعليلية على حد تسمية الدكتور أحمد كمال زكى فى كتابه الأساطير : وهى " طقوسية، ورمزية، وتعليلية، وتاريخية" ([٢٠])

فتعليل ظواهر الطبيعة صار أسطورة، وكما يعرض فراس السواح فى كتابه، ويرجع هذا الاتجاه كل الأساطير إلى منشأ طبيعى يتصل بعناصر الطبيعة، "فكثير من الأساطير كان باعثه القمر، وكثير منها كان يتركز حول الشمس وآخر وهبته الطبيعة ظواهر الطقس المختلفة كالصواعق والرعد والبرق"([٢١])"

ويذهب البعض إلى أن الأسطورة استوعبت قلق الإنسان الوجودي، وحلت إشكالاته مع ظواهر الحياة، فهي مجمع الحياة الفكرية والروحية للإنسان القديم فيقول : ـ

" عندما انتصب الإنسان على قائمين رفع رأسه إلى السماء ورأى نجومها وحركتها وأدار رأسه فرأى الأرض وتضاريسها ونباتها وحيوانها----- ثم قال :" وبَعد حدود رد الفعل كان عليه أن يبدأ مغامرة كبرى مع الكون أولى نحو المعرفة فكانت الأسطورة"([٢٢])

---

(٢) مغامرة العقل الأولى فراس السواح، دار الكلمة للنشر، بيروت سنة١٩٨٢ الطبعة الثالثة ص٢٥

(٣) الأساطير د٠ أحمد كمال زكى – سلسلة المكتبة الثقافية ٠ دار الكتاب العربى للطباعة والنشر القاهرة مارس ١٩٦٧، ص٤ ، ٥ ٠

(٤) مغامرة العقل الأولى فراس السواح ص ١٠

(٢٢) مغامرة العقل الأولى، فراس السواح ص ١٥ ٠

وما أشد الغموض والإبهام في ظواهر الطبيعة حول البدائي، فكل شئٍ حوله يحتاج تفسيرًا، وعلاوة على الأسطورة- كحلٍ وحيدٍ لديه – أندفع الإنسان الأول إلى الروحي من السلوكيات والتفسيرات حتى غلب الدافع الروحي على الدافع العقلي لدى الإنسان البدائي(٢٣) ولغرابة النار وأهميتها الواضحة والمتمثلة في الحرارة والضوء سيطرت بشكل خرافي على خيال الإنسان القديم واستمرت هذه السيطرة على مر التاريخ والحضارات متحِلية في الأساطير التي تترجم أفكار وأحلام البشر.

ويعتقد الهنود أنَّ الحرارةَ هي التي ساعدت على خلق الإنسان والكون :" فقبل الوجود والعدم كان الخواءُ المائي المعتم ثم نشأت جرثومة الحياة بفعل الحرارة ومن هذه الجرثومة نشأت الخليقة"(٢٤)

والأمر لا ينتهي عند الاعتقاد في الحرارة بهذا الشكل فحسب بل يتجاوزه إلى انعكاس نفسي تظهر آثاره على الإنسان مترجمًا " في الأحاسيس فيروى الجاحظ :

" أن رجلاً أُلقى في ماء راكد في شتاء بارد في ليلة من الحنادس، لا قمر ولا ساهور فمازال الرجل حيا، وهو في ذلك بارد وجامد مادام ينظر إلى نار كانت تجاه وجهه في قرية أو مصباح، فلما أطفئت انتفض"(٢٥) "

---

(٢) راجع الحكاية الخرافية فريدرش دبرلاين ترجمة د٠نبيلة إبراهيم، دار القلم بيروت ١٩٧٣ ص ٧٥ : ٧٨

(٣) الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة على الشوك لندن ١٩٨٧ ص٥٩

(٤) الحيوان للجاحظ تحقيق فوزي عطوى دار صعب بيروت ١٩٨٣، حـ ٥ ص ١٧٨ ، ١٧٩ ٠

وقد انجذب الباحث نحو هذه الرؤية حينما كان في حديثه مع إنسان معاصر قد تعدى الثمانين من عمره . قال حينما دعي للتدفئة على النار: أنه يدفأ بعينيه عن بعد ولا يحب الاقترَب من النار لأسباب صحية .

وهذا إيحاء عكسته رؤية النار، وتجسد في هذه الأحاسيس والمشاعر التي ورثها إنسان كل العصور وعليه عُدَّت الحرارة أساساً لاحترَام الناس للنار من أقدم الأزمنة كقوةٍ خالقةٍ تجسدت في الشمس، وقد عدها الفلاسفة القدماء مجرىً" لطيفاً" هو صفة القوة الخالقة أو مظهرها أو ذاتها، وهى الريح الخفية في الكائنات الحية، ولذا كان كثير من الأمم يحترمون الشمس ويجعلونها في المرتبة الأوُلى من المعبودات"([٢٦])

وعُدت النار من آلهة العالم السفلى القوية عند سكان " مناغيا" وهى أربعة أولها : ماديك" إله النار" وثانيها " را" " إله الشمس" الذي يرجح جيمس فريزر بأنه هو "رع"([٢٧])

أساطير في أصل النار

ولَّما كان للنار في تاريخ البشرِ هذه المكانة، كان حتما على الشعوب البدائية أن تميل في تفسيرات هذه الظاهرة إلى الأساطير التي تجمعت متضافرة" في وجدان الإنسان الأول نتيجة لتجاربه البدائية مكونة ذاكرة كبرى وهى ما يسمى باللاشعور الجمعي، وقد أشار د. مصطفى ناصف إلى ذلك نقلا عن كارل يونج في كتاب الصورة الأدبية إلى أن الذكريات الشخصية لبعض الأشياء مرتبطة بحالات وجدانية ارتباطاً لا يمكن تحليله، فوراء هذه الذكريات - وفقاً لنظرية يونج - بعض النماذج أو الصور البدائية الأولى للاستجابة الموروثة

---

(٢٦) دائرة المعارف ، المعلم بطرس البستاني مطبعة المعارف بيروت ١٨٨٨حـ ٦ص ٧٥٦ ، ٧٥٧

(٢) أساطير في أصل النار : جيمس فريزر ص ٨٦

لأجيال عدةٍ في السلف، وهذه الصور تلوح من بعيد غامضة وراء التجربة الحاضرة وتؤثر تأثيراً خافياً في النفس" (٢٨).

لذا ظهرت التفسيرات حول موضوع النار وانعكاساتها على أغلب الشعوب متشابهة، وبخاصة أساطير نشأتها وبداية معرفتها، وإذا عدنا للتقارير الأثرية وجدنا أنها تشير إلى التحكم في النار هو عنصر فني قديم له فترة من الزمان لم تتحدد حتى الآن، فكان الظهور الأول للنار علامةً مستمرةً على الحياة في فرنسا، وصناعة النار عرفت في عصر" البلاستوسين" Plaistoncene ٥٠ مليون سنة وعرفت في الصين، واشتغل بها الأوربيون، واستخدمت للتدفئة من برودة الجو، ومعرفة النار والتحكم فيها له إشارات متشابهة بين كثير من الشعوب،(٢٩) وثمَّة شعوبٍ أخرى – قد أفادت من معرفة النار والتحكم فيها بشكل خرافي – ولم نتحدث بإسهاب عن تلك الحرمانات التي تعرضت لها البشرية في العصر الخالي من النار والتي أظهرت اضطرارها لطهو الطعام في حرارة الشمس،-- وهو أشد الحرمانات التي سببها للبشر فقْدُ النار(٣٠)

وقد عرض جيمس فريزر لما كانت تعانيه الشعوب الأولى في العصر الخالي من النار في الحكايات القديمة على امتداد العالم(٣١)

واخترع عملية للحصول على النار نسجت حولها كثير من الأساطير، "غالباً" ماتُحَال إلى الخيال.(٣٢)

---

(٣) الصورة الأدبية . د. مصطفى ناصف دار مصر للطباعة .مصر ١٩٥٨ ص ١٧٤

(4 The ency – Americana v "1" p "2

(١) أساطير في أصل النار جيمس فريزر ص ٢٣٢

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٠ ، ٢٣٢

(٣) Ency of Religion vol "6" p "26"

وقد لجأ الباحثُ لرصدِ هذه الأساطير في أصل النار لا لذاتها ولكن لتحثث خيوط الخيال واتجاهاته حول ظاهرةِ النارِ وانعكاساته على سلوك الإنسان ورؤاه قَبلَهاَ، مع الإيجاز قدر المستطاع ٠فقد عُدَّت النارُ – مثل الكتابةِ والفنونِ دوماً أسرار إلهية جيء بها إلى الأرض إما كرماً من الآلهة أو عُدْوَةً واغتِصاباً: " يقول مفسرو قصة الخليفَة : إنَّ اللّٰه خلق السموات من نورِ ردائه وحَاك اللّٰه لفتين إحداهما من نار والثانية من ثلج ليخلق منهما الكون، واثنتين أخريين من نار وماء ليخلق منهما السموات"(٣٣)

وتذكر الدائرة اليهودية الرؤية العبرية في نار السماء حيث: " نزلت النار من السماء عندما رغب اللّٰه ليتدخل في قضايا الإنسان٠ إنها في ذلك تُعد مفاتيح المعبد حيث " جو كافيا" jocniah رغب أن يبتعد عن" نوبو خدانصر" ويهرب بعيداً "عن الأرض ماذا يقول الإنجيل ؟ نار غريبة Strange fire لذلك وعد اللّٰه العالم بأنه لا يزور العالم بالطوفان مرة أخرى٠(٣٤)

من هذه الأخبار تتضح العلاقة بين النار والإله الخالق بشكل أسطوري، وتتجه أسطورة نشأة النار وأصلها إلى عالم الحيوان، وتتشعب معه حاملة رموزاً تترجم كثيراً من الظواهر، وتفصح عن كثير من أحلام وعقائد الإنسان فعند" الأوركينا" في غنيا الجديدة يجلب النارَ كلب أجرب ويسبح بها وهى معلقة في ذيله عابراً البحيرة(٣٥)

---

(٤) الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة على الشوك ص٤٤

(٥) The Jewish ency- Funk and magnaells Company 1904 Newyork and London vol "4" p "393"

(٦) أساطير في أصل النار ص ٤٩ ٠

ويلاحظ في هذه الأسطورة عدم تأثر النار بماء البحيرة إذن هي نار غير عادية في خيال صانع الأسطورة ويلاحظ فريزر ارتباط النار بالكلب حتى اليوم (٣٦) وعند سكان استرَاليا الوسطي يُحصَل على النار موجودة في العضو الذكرى للكنغر" الأورِ" بعد قتله وهنا تقترب الأسطورة من الجنس(٣٧) وفى معجم الفلكلور والأساطير والسحر إشارة إلى أن النار انتقلت للإنسان بواسطة سلسلةٍ من الحيوانات بتمريرها بينهم من حيوان لآخر (٣٨) ورأى شائع بين الأمريكان الهنود بأنها نقلت خلال سلسلة من الحيوانات وبعد كثير من الصعوبات يتسلمها الإنسان، وشاركَ في ذلك الثدييات والطيور والزواحف والأسماك٠(٣٩)

ولم تصدر هذه الخيالات عبثاً "، وإنما كانت تعليلاً لظواهرَ حول منشأ الأسطورة لدى الشعوب ويشير فريزر في كتابه لذلك (٤٠) وتتحول مسيرة أساطير أصل النار من الحيوانات إلى عالم الأشجار واختزَانها للنار حيث يذكر فريزر:" أن النار بدأت من احتكاك فروع الشجر ولاحظتها امرأة عجوز" (٤١) وقد ذكرت الدائرة الأمريكية : " أن استخراج النار تطور بتدليك فروع الأشجار في الريح٠(٤٢)

---

(٣٦) نفس المرجع السابق ص ٤٩

(٣٧) نفسه ص ٣١

(٣٨) - Standar ditonary p0"390"

(٤) The ency – Americana v "1" p "242"

(٥) أساطير في أصل النار ص ٢٤٥

(٦) الفلكلور في العهد القديم جيمس فريزر ترجمة د٠نبيلة إبراهيم دار المعارف مصر ١٩٨٨ حـ١ص٢٢٤

(٧) -The ency – Americana vol "11" p "242" (٨)

الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة على الشوك ص٤٥

ولم تغفل الأساطير الإنسان ودوره مع قصص أصل ونشأة النار، بعد ربطها بالآلهة والحيوانات والأشجار، فتحكى أسطورة أن آدم أبا البشر عندما تساءل كيف يجترح النور؟ أعطاه الله حجرين : أحدهما يدعى حجر الظلام، والآخر شبح الموت وضربهما ببعضهما فقدحا نارا وقال الله " وهكذا تم اجترحها" (٤٣)

ويذكر فريزر أن : صانع النار الأول في جزيرة " مايو باغ" كان طفلاً صغيراً اسمه "كوبامو" كان يملك ناراً في طرف السبابة من يده اليمنى " (٤٤) وفى غينيا الجديدة واسترليا أساطير تذكر أن النار في أصبع سادس بين السبابةِ والإبهام لامرأة عجوز (٤٥) وفى جزيرة مايوباغ " تخبئها امرأة في عشب ويسرقها منها تمساح" (٤٦)

وتقترب الأسطورة من الجنس حيث تخرج النار من أعضاء التناسل أو قريبا منها أو من التقاءِ الجنسين ففي " واغاوغا" شرق غينيا الجديدة تخرجُ المرآة النار لتستخدمها في طهو طعامها من بين فخذيها(٤٧) وتصل صراحة إلى الغرض الجنسي عندما تخفيها امرأتان بين فرجيهما حتى لا يراها زوجاهما (٤٨) ثم تطورت الأسطورة إلى أن تنتج النار من التماس امرأة برجل وهنا تصل الأسطورة في منتهى الصراحة في التعبير عن الحلم البشرى الصادر عن فطرة الإنسان البدائي، ففي "الماران" جنوبي غينيا الجديدة حدث يوما " أن رجلاً مطّلعاً على الأسرار اسمه " وابا" عانق امرأته عناقاً شديداً حتى أنه لم يستطع أن

---

(١)- (٢) – (٣)– (٤) أساطير في أصل النار ص ٤٥ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٥٣ ، بتصرف يسير في الصياغة
(٥) نفسه ص ٣١
(٦) نفسه ص ٥٥

(٧) أساطير في أصل النار ص ١١٩

ينفصل عنها رغم كل ما بُذِل من جهودٍ وأخيراً " جاء لنجدتهما كائن فوق الطبيعة وعند فصلهما انبثق دخان ولهيب من احتكاك جسديهما فكان ذلك أصل إشعال النار بعودين من الخشب، ويفسرون غاية النار على أنها تمثل الحركة الجنسية بين زوجي الخيزران ([٤٩]) ولعل هذه الأسطورة ناتجة عن أصل جعل الناس يربطون حتى اليوم بين النارِ ووصف المرآة والجنسِ وارتباط اللونِ الأحمر بالذاتِ بالجنس كلون ناري ساخن، وسيلاحظ ذلك فيْ ارتباط النار بصورة المرآة وجهها وحليّها--- إلخ في صور الشعر الجاهلي في الجزء التطبيقي.

ثم تستقر أساطير أصل النار وتقترب من الواقع العقلي لطريقةِ الحصولِ عليها بشكلٍ علمي، ففي سيبيريا عند القبائل التترية تنتج النار عن طريق ثلاث بنات لرجل من حد الحجر وقوة الحديد ([٥٠])

وتشير الدائرة اليهودية إلى إن بعض العبرانيين استخدام قطعتين من الخشب فى صناعة النار كما تشير إلى حجر النار "Firstoone" ([٥١])

وتذكر بعض المصادر أن الإنسان الأول عرف النارَ وحصل عليها صدفةً إثناء احتكاك الحجر فاستخدم حجر القداح " Flint " وكبريتور الحديد " Pgrites " واستخدمها الإسكيمو في ألاسكا .

وإنْ كانت حكايات أصل النار قد اقتربت من الواقع، فقد رأينا أيضاً اقترابها من الأسطورة في الحكايات التي نسجت حولها مثل : تزاوج الشجر والحجر، أو كمون النار في أغصان الاشجار.

---

(٨) The Jewish ency – vol "4" p . " 391 – 392"

وهذا العرض وإن طال وبدأ للوهلة الأولى إطناباً في جزئية صغيرة إلاَّ أنه لفت النظر لمناقشة ظاهرة النار كأسطورة في نشأتها مع الإنسان الأول ويعد هذا تمهيداً لاستقبال أساطير النار في جوانب البحث الأخرى.

علاقة النار بالكواكب في الأساطير القديمة

ارتبطت الكواكب بالنار فئ عقل الإنسان القديم بشكل جدلي فتارة تكون النار أصلاً تفرعت منه الكواكب، وتارة تكون الكواكب أصلاً للنار ومصدراً أساسياً لها.

وهنا أحاول الإجابة على تساؤل يطرح نفسه عند النظر في البحث وهو ما علاقة النار بالكواكب؟؟؟

لقد دلَّت المأثورات الأسطورية التي جُمعت حول هذه الجزئية على مدى ارتباط النار بالكواكب، مع ملاحظة أننا لا نقيم الظاهرة أو هذه العلاقة بمنطوق وخبرات الإنسان المعاصر بعد هذا التطور الهائل والتخصص الدقيق في نواحي المعرفة، ولكن ننظر لهذه العلاقة من خلال رؤية الإنسانِ القديم وتفسيراتهِ حتى يتسنى لنا تحليل أفكاره وكشف الغموض عن الظواهر الفنية في إنتاجة الأدبي عن وعى بتركيبة الفكرية.

فإذا تناولنا العلاقة بين النار والشمس، وهى علاقة متميزة حيث تراكمت فيها الأخبار بشكل جدلي تتبادل فيه النار والشمس الأمومة، فالنار أم الشمس في بعض المصادر ففي شرق غينيا الجديدة امرأة تُخرج النار من بين فخذيها تلد الشمس والقمر في شكل ناري وترسلها إلى السماء للإضاءة والحرارة ([52]) وأن أصل الشمس كما تحكى الأساطير

---

(١) أساطير في أصل النار ص ٧٥

كان شرارة تحت الأرض " براهم" الهندي وجعلها أثلاثاً فثلثٌ منها هي النار المعهودة والمحتاجة للحطب والمنطفئة بالماء، وثلث هي الشمس، وثلث هو البرق" ([٥٣])

فقد عرض صمويل نوح كريمر تحت عنوان " الأساطير الإبرائية :

" للروح الحي " مهر يازد" والإله مثرا " ومعاقبته قوى الظلام الشيطانية وذكر أن الأبراج الاثنى عشر والكواكب السبعة قامت حكاماً على العالم بأسره أما الشمس والقمر فقد سُويا من نور لم يلوث"([٥٤]).

وحقيقةُ الشمس في حلم جان بول : " أنَّ الشمس بعدَّها ابنة للأرض قد قذفت بها إلى السماء فوهة جبل منصهر([٥٥]) وقد تطورت هذه الأسطورة حتى تجسدت في ممارسات وطقوس حَالَما يحدث كسوف للشمس وذلك عند قبائل " الكميتشانكا" يحضرون النار في أكواخهم ويصلون مبتهلين إلى الكوكب المضئ العظيم الذي يتألق من جديد كما كان يفعل من قبل ([٥٦]) .

والشمس مصدر للنار كما ذكرت كثير من المصادر التاريخية عند كثير من الشعوب ([٥٧]) وهذه المصدرية لم تأت عبثا وإنما – كما يذكر د. جواد على : لما في الشمس من أثر

---

(٢) تحقيق ما للهند من مقولة لأبى الريحان محمد بن أحمد البيروني عالم الكتب بيروت١٩٨٣ طبعة ٢ ص ٣٥٨ .

(١) أساطير العالم القديم : صمويل نوح كريمر ترجمة د. أحمد عبد الحميد يونس، الهيئة المصرية العامة للكتاب مصر ١٩٧٤ ص ٣٠٠ ، ٣٠١

(٢) النار في التحليل النفسي جاستون بشلار ص ٢٠

(٣) الغصن الذهبي جيمس فريزر ترجمة د. أحمد أبو زيد الهيئة المصرية للكتاب مصر ١٩٧١ ص ٢٩٠

(٤) مصر والحياة المصرية القديمة أوديلف إرمان إنكه ترجمة عبد المنعم أبو بكر مكتبة النهضة المصرية د.ت ص ٢٨٣ ،٢٨٤

بارز في الزرع والأرض وفى حياة الإنسان بصورة مطلقة ([٥٨]) وهذا الأثر يتلخص في حرارتها ويشير لذلك فراس السواح : وبتأثير حرارة الشمس انفصلت الأشياء وطارت في مكانِها لتلتقي في الهواء وتتصادم، فنشأت البروق والرعود وعلى صوتها أفاقت الحيوانات مذعورة وراحت تنتقل على اليابسة وفى البحر ذكوراً وإناثاً ([٥٩]) وهذه القيمة الحرارية لا تقرها الأساطير القديمة فقط بل العلم في العصر الحديث أيضاً، فيعرض المعلم بطرس البستاني في دائرته :

" أن الشمس هي المصدر الرئيسي للحرارة ومن أقوال "مابرى" "واثرسون" "وطمسن" " وهلمهولتس"، وقال : بحسب كل الرأيين تعد الشمس مصدراً عظيماً لحرارة إشعاعية تستمد منها الأرض حرارتها، وقد استمدت منها عدداً

من السنين لا يحصى في أكثر الأدوار الجيولوجية ([٦٠]) ويتابع قائلاً : ويظهر من حسابات يوليه أن الشمسَ تشع في الساعة مقداراً من الحرارةِ يعدل ما يُشّعه اشتعالُ طبقةٍ من فحم حجري إنثراسيتى سمكها١٠أقدام ([٦١]) وأحياناً كانت الشمس تمثل مانح النار" Giver of Fire " وابتكرت كثير من الأساطير حكايات تشرح كيف بزغت النار من هذا المصدر الشمسي، وكيف كان الإنسان يفترض أنه يستطيع أن يتسلق إلى الشمس مستخدماً حبلاً عبر السحاب أو مسافراً عبر خط الاستواء ليحصل على النار([٦٢]) .

---

(٥) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام د.جواد على دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٠ ط ٣ ، حـ٤ ص ٢٢

(٦) مغامرة العقل الأولى فراس السواح ص ١٠٠ ، ١٠١

(١) دائرة المعارف . المعلم بطرس البستاني مطبعة المعارف بيروت ١٩٨٣ حـ ٦ ص ٧٥٨

(٢) نفسه حـ ٦ ص ٧٥٨

(٣) -The ency – Americana vol "11" p "242

وقد ربطت بعضٌ المصادر بين النارِ والشمسِ أيضاً قائلةً عن النار : إنها انبعاث من الشمس وهى نائبةً عن الشمس في الكوكب الأرضي وبهذا فهي ترتبط بأشعة الضوء والإنارة وبالذهب، ثم تستطرد في نفس الصفحة قائلةً : فكل النيران في العالم تؤخذ في أي لحظة من ألسنة الشمس(٦٣) ٠

وعند الصينيين كانت الطقوس الشمسية ترمز إلى الحاجز الأحمر الذي يرمز إلى " الإله"

كما كانوا يسمونه " تشانج" إنه يرمز إلى عنصر النار، وفى الهيروغريفية المصرية كانت النار لها علاقة رمزية شمسية تتعلق بشكل خاص بمفهوم الحياة، ويشير قاموس الرموز في نفس الصفحة إلى أن المرحلة الأولى تؤكد أنَّ النارّ منبعثة من الشمس"(٦٤)

ويقول بشلار أيضاً إنَّ مبدأ أغتذاء الكواكب بالنار يبدو في غاية الوضوح ونحن قبلنا بالفكرة الشائعة جداً حتى القرن الثامن عشر ومفادها أن جميع الكواكب من جوهر سماوي واحد هو " النار اللطيفة " (٦٥)

وتنتقل علاقة النار من الشمس إلى القمر بالتبعية فهو أبٌ في الثالوثِ السماوي المشهور وقد ربط د٠نجيب ميخائيل، عبادة "سين" " إله القمر" وزوجته بعبادة النار ٦٦ وهو أبو أوتو إله الشمس في

الأسطورة السومرية (٦٧) ٠

---

(٤) - dictionary of symbol and Emagery p"187"

(٥) -Dictonary of symbol p "105"

(٦) النار في التحليل النفسي جاستون بشلار ص ٦٣

(٧) مصر والشرق الأدنى القديم د٠نجيب ميخائيل دار المعارف مصر ١٩٦١ حـ ٦ ص١٢٤

وقد أشار جميس فريزر إلى هذه العلاقة عند الهنود الحمر حيث " إنهم كانوا يدفنون في الأرض قطع الخشب المشتعل في وقت خسوف القمر باعتقادهم أنه إذا انطفأ نور القمر فسوف تنطفئ كل نار على الأرض ماعدا النار التي اختفت عن ناظريه" ([٦٨])

ويشير فريزر إلى أساطير متعددة تربط بين النجوم والنار قائلا : وثمة أساطير أخرى تربط أصل النار بالنجوم أكثر مما تربطها بالشمس والقمر، ويبدوا أن التشمانيين ربطوا بين صانعي أول نار على الأرض وبين النجمين التوأمين "كاستور" ، "وبولوكس" ([٦٩])

ويعرض أيضاً : "أن أصل النار يقترن بالثريا أو النجوم السبعة، ويفترض أيضاً أن أناساً من الوطنيين في تسمانيا يربطون أيضاً بين النيران الأرضية والنيران السماوية في بادئ الأمر كانت على الأرض" ([٧٠]) وفى قبيلة " أوبستربای" في تسمانيا أن رجلين أسودين هما اللذان أوقدا النار وصعدا إلى الغيوم وفى الليلة الصافية تراهما كنجمين وتذكر بعض الروايات أن هذين النجمين هما

" Pollux, Castor "

---

(١) الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة ص ١٥٢

(٢) الغصن الذهبي جيمس فريزر ترجمة ٠أحمد أبو زيد الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧١ ص ٢٩٠

(٣) أساطير في أصل النار جيمس فريزر ص ٢٣٥

(٤) نفسه ص ١١ ، ٢٦ ٠

أخذت ظاهرة النار من محصلة هذا التراكم مكانةً في أفكار البشر على اختلاف أجناسهم وأوطانهم وديانتهم، لذا نحاول رصد أنماطها حريصين على توثيقها في الفكر البشرى بصفة كلية بمقارنة معتقدات العرب وممارساتهم مع النار ومعتقدات وممارسات غيرهم من شعوب العالم، حيث تقترب الظاهرة من الأنماط العليا أو " اللاشعور الجمعي"٠

وظاهرة النار ظاهرة مهمة في حياة البشر، وتقييمها على الشريحة العقلية للإنسان بشكل عام لا يقل أهمية عن دراسة جسم الإنسان بشكلٍ تشريحي لإدراك التقارب والتشابه بين رؤى وتصورات البشر لهذه الظاهرة على اختلاف أجناسهم وتباعد أوطانهم وأزمنتهم، حيث يكشف لنا هذا التقارب عن الهواجس والأحلام التي طالما أثَّرت في تشكيل مضامين التأليف الأدبي عند الإنسان القديم٠

والتعامل مع ظاهرة النار والنور والاعتقادات حولها أخذت شكلاً نمطياً بين كثير من الشعوب بتشابه عجيب تعجز عن تفسيره، وتعليله علة الهجرة أو وحدة الأصل([٧١]) ورغم تباعد الأوطان والأصول واللغات والديانات إلا أن الرؤية تبدو وكأنها تنبت عن أصل واحد هو " الإرث" الفكرة التي نبعث عند باحثي الانثربولوجيا([٧٢]) والتي عدت وحدة سيكولوجية يشترك فيها الناس جميعاً من حيث هى رواسب لأشكال أولية متتابعة مرت بها المجتمعات البشرية ([٧٣]) ٠

---

(٧١) المنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي د٠عبد الفتاح محمد أحمد، دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت١٩٨٧ص ٣٨ ٠

(٢) نفسه ص ٨٦

(٣) راجع قصة الأنثروبولوجيا د٠ حسين فهيم سلسلة عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة

هذه الوحدة تمثل طوراً سحرياً مقابلاً للطور الحجري من حياة الإنسان وثقافته في كل مكان من العالم،([٧٤]) والتي خلَّفت حكايات خرافية ومعتقدات شبيهة بقطع أحجار متناثرة تمتد كلما رجعنا إلى الوراء بل إنها فيما يبدو كانت تُكَوِّن المضمون الأدبى لأقدم التأليفات الأدبية" ([٧٥])

وقد أرجع دير لاين- بشكل قطعي - موضوعات الحكاية الخرافية إلى تصورات دينية انتشرت في جميع أنحاء العالم ([٧٦])

وهذه التصورات تبرز في ظاهرة النار التي تصورها الإنسان القديم في شكل إله خَيِّر متمثلاً اللهب أو النور الذي بلغت شهرته ذروتها في إلهي الشمس والقمر، فصارت آلهة النار والنور نمطاً متكرراً في شتى أنحاء الأرض وعلى مختلف العصور وحتى يومنا هذا في بعض المناطق، وإن لم تكن آلهة بشكل مباشر كانت عنصراً خَيِّرًا وجوهرًا لطيفًا وعلامةً على الصلاح بقبول القرابين، وإنْ كان قد اعترَها التطور إلاَّ أنها لا تزال متشابهة بشكل مباشر كان أو بشكل رمزي ، فحكاياتها الخرافية تمثل بعض الطرز البدائية القديمة في حياة الإنسان([٧٧])

والفنون والآداب الكويت ١٩٨٦، ص ١٣٦ .

(٤) الغصن الذهبي جيمس فريزر ترجمة د٠أحمد أبو زيد حـ ١ ص ٢٣٠

(٥) الحكاية الخرافية فريد ريش فون ديرلاين ترجمةُ د٠نبيلة إبراهيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة ١٩٦٥ ص ٢٩

(١) نفسه ص ٣٩

(٢) الفلكلور في العهد القديم جيمس فريزر ترجمة د٠نبيلة إبراهيم حـ ١ ص ٧١

ويبدو أنَّ كل إنسانٍ كيفما كان تحضُرُه، يحتفظ في داخِلِه بنسخةٍ من إنسان بدائي، هذا الإنسان ينزلق مسترسلاً من جيل لآخر في سلالة البشر بشكل وراثي يلاحظ ذلك من خلال الاحترام والوقار الذي تنطوي عليه أنفسنا للنار بشكل لا شعوري لا نستطيع الجزم بأن كل مهابة النار موكولة للشكل البرجماتي فيها فحسب، بل هناك رواسب في ذاكرتِنا الكبرى تحوى أسرارا مع النار والنور.

ومن هنا كان التشابه بين الكثير من معتقدات شعوب العالم وممارساتهم – رغم ما يفصل بينها من مسافات زمانية ومكانية – مع ظاهرة النار، وقد أثَّر هذا التشابه في كثير من تصرفات الإنسان حتى هذا العصر وفى شتى المجالات التطبيقية والنظرية وأساليب وضع الحلول العلمية .

وقد استخدم الدكتور طه حسين هذه الحقيقة في إثبات قضية " الانتحال " في الشعر الجاهلي ؛(٧٨) فتشابه الظروف ينتج تشابه الظواهر وتشابه الحلول والممارسات والأفكار، وسيعرض الباحث ظاهرة النار للاختبار تحت هذه الحقيقة ؛ لاستكشاف مكانتها عند شعوب العالم القديم ومدى تأثر الإنسان وانفعاله تجاهها، وهذا يستوجب منا الطواف على بعض شعوب العالم القديم للكشف عن هذه المكانة لظاهرة النار في ذاكرة الإنسان القديم ومدى التشابه بين هذه الشعوب وبين العرب من خلال صورة النار.

---

(٣) راجع في الأدب الجاهلي د.طه حسين، دار المعارف مصر ١٩٧٧ ص ١١٤

وقد ربط الدكتور بين الانتحال في الشعر اليوناني والروماني والانتحال في الشعر العربى.

ظاهرة النار قديماً بين العرب وغيرهم

احتلت ظاهرة النار مكاناً مهما في لا شعور الإنسان الجمعي عند مختلف الشعوب رغم تباعد الأزمنة والأماكن واللغات، فهي متناثرة بين شعوب الأرض قاطبةً، بأشكالٍ متنوعة ومتناظرة بشكل يستدعى النظر والبحث، فهي تظهر عند أغلب الشعوب كإله مقدس حافظ، أو تظهر في طقوس سحرية لمواجهة الطبيعة بشكل رئيسي فعال أو مستخدمة في صورة عنصر حربي مقاتل، أو دلالة على التحاكم والعقاب والتطهير والكرم والإطعام والراحة، أو ملتحمة بصورة الإنسان رجلاً وامرأة بدلالات دينية ورمزية.

وإذا حاولنا في عجالة تتبع ظاهرة النار لدى شعوب العالم وجدناها في صورة الإله المقدس المعبود فهي عند سكان أمريكا الجنوبية بين القبائل الهندية القديمة جد أكبر، والدخان عندهم يحمل كلمات الصلوات إلى الإله الأعظم (٧٩) وكان الهنود أيضاً وسكان أمريكا الجنوبية يحملون المشاعل عند دخلوهم الغابات المظلمة لا لغرض الإنارة وإنما ليرعبوا الأرواح الشريرة التي تسكن تلك الأماكن (٨٠) وهذا دليل على قداستها لديهم كإله حافظ . وكان سكان جزيرة تيمور " timor " يقيمون رئيس الكهنة في المعبد ويحرص على أن تظل النار مشتعلة " باستمرار، لأن انطفاءها يؤدى إلى نزول الكوارث بالأبطال المحاربين(٨١) وفى أساطير الرومان إشارات إلى أن النار المقدسة وأخاديدها لها علاقة بالمعبد الكبير من آلهة النار في العصر القديم، وارتباطها بالأساطير العالمية، كما ظهرت أهمية النار في التاريخ البشرى في المخطوطات القديمة فكان " Vedic " أو " Agni " هو

---

(١) - Stander Dicitionary p "390"

(٢) - Man myth and magic p " 970"

(٣) الغصن الذهبي جيمس فريزر ترجمة د. أحمد أبو زيد حـ١ ص ١٤٧ ، ١٤٨

رسول النار والتجسيم والتخصيص لنار الذبيحة إلى اليوم " فالبرهمان" يدافعون عن النار المقدسة لعبادتهم مثل الرومان الذين عبدوا النار المقدسة الأبدية ([٨٢])

والإله أجنى "Agni" أو فيدك "Vedic " كان يمثل الحامي الصائن

" Protector" ضد الظلام، والإله " Baai " كان يختص بالذبائح البشرية التي تقدم للنار وكان يمثل إلها أعظم

للغونيك " العنقاء" وكان له علاقة بالإله " جيبل " الذي عهد في سيبيريا البدائية باسم إله النار الروماني " Vulcan " ([٨٣])

وهنا نلاحظ التشابه بين اسم هذا الإله الناري واسم البركان " Volcano "

وفى الكتاب المقدس كمصدر للديانة المسيحية يظهر الإله في صورة نار منتقمة ففي رسائل بولس إلى العبرانيين يذكر الرب في صورة نار آكلة : "تخدم الله خدمة

مرضية بخشوع وتقوى لأن إلهنا نار آكلة" ([٨٤]) والشمس كأصل للنار أو أحد صورها في الفكر القديم يشترك المصريون والكلدانيون في عبادتها فيقول د٠عبد المحسن الخشاب : " إن اللوحات المسمارية التي وجدت بتل العمارنة تثبت الصلة بين المصريين والكلدانيين في هذا العهد وهم أكثر الناس تخصصاً " في علم الفلك وكانوا يعبدون الشمس " ثم يقول " فيكون إخناتون طبَّق فكرة عالمية عبادة الشمس المصرية القديمة أي الكزموقراطية"([٨٥]) ثم يشير د٠ نجيب ميخائيل إلى أن هليوبوليس- عين شمس الحالية – مركز لعبادة " رع " "

---

(٤) - The new Ency – Britanica vol " 4 " p " 788"

(١) - The new Ency– Americana vol " 11 " p " 242"

(٢) الكتاب المقدس رسالة بولس عبرانيين" ١٢ : ٢٩ "

(٣) تاريخ اليهود القديم بمصر د٠عبد المحسن الخشاب مكتبة مدبولى القاهرة١٩٨٩ ص٨٨

إله الشمس " ([٨٦]) وقد عثر على تقدمة فلا هرم ونيس بها إشارات تنم عن الإله الشمس : " ضياء وليس كضياء بقرة آتوم- مثل زهرة اللوتس عند أنف رع ------" ([٨٧]) وحتى يشرق كل يوم في الأفق تظهر الآلهة نوره"([٨٨])

ويقول صمويل نوح كريمر: " إن فكرةَ إله الشمس رع لا تفارق المصريين خلال الثلاثة آلاف سنة ق٠م، وله علاقة بحورس، وأوزوريس ([٨٩]) والصينيون اعتقدوا أن النار إله تقدم له القرابين لإرضائه ولتكفير الذنوب ([٩٠]) وفى الشمال الشرقي لقارة آسيا تعطى "تشوكس" أهمية كبيرة لألواح النار وأيضاً تبين أن الكرياكيين اللذين يسكنون سيبيريا الشمالية الشرقية يعدون هذه الألواح آلهة نار البيت، حارسة مسكن الأسرة ينسبون لها القدرة السحرية على حماية قطيع الأيائل ([٩١]) وعند الفرس كانت النار من أشهر معبوداتهم وهم أشهر من عبد النار وعظَّمها وأول من عبدها وبني لها البيوت هو" أفريدون" ([٩٢]).

ويذكر النويرى أن أول من عظمها من ملوك الفرس هو "جم" أحد ملوكهم ودعا الناس لتعظيمها ([٩٣]) وذكر الجاحظ أن زرادشت هو الذي عظم النار وأمر بإحيائها ونهى عن

---

(٤) مصر والشرق الأدنى القديم د٠ نجيب ميخائيل ص١٣٤
(٥) الرمز والأسطورة في مصر القديمة رندل كلارك مكتبة الشباب القاهرة ١٩٨٤ ص٦٢، ٦٣
(٦) مصر والحياة المصرية القديمة أودلف إرمان ص ٣٨٤ ٠
(٧) راجع أساطير العالم القديم صموئيل نوح كريمر ترجمة د٠أحمد عبد الحميد يوسف الهيئة المصرية للكتاب – القاهرة – ١٩٧٤، ص٣٥، ٤٠
(٨)
Mauntain Rains-Anew Biogoraphy of gams Frazer Elean crossmass p "141"
(١) الفلكلور في العهد القديم جيمس فريزر ترجمة د٠نبيلة إبراهيم حـ ٢ ص ٤٢١
(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر للسعودي تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر بيروت حـ١ ص٥ حـ٢ ص٢٥٢
(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب للنويرى المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة٠مصرد٠ت حـ١ ص١٠٥

إطفائها([٩٤]) ومن الفرس أيضاً من جعل الشمس إله الآلهة ورب الأرباب فكانوا يتقربون إلى الهياكل كُلَّ تقرب ([٩٥]) ٠ وكان من الصيامية من توجهوا في عبادتِهم إلى النيران تعظيماً لها ([٩٦]) ٠ وزعموا مع الكينوية أنها أحد الأصول الثلاثة " النار – الأرض – الماء" ذلك لأن النار بطبيعتها خَيِّرة نورانية والماء ضدها([٩٧]) وكان "خواق" رئيس الزمازمة من نيسابور يعبد النيران ([٩٨]) ويروى الألوسى أن من عبادتهم لها أنهم يحفرون لها أخُدوداً مربعاً ويطوفون به، وهم أصناف مختلفة وطائفة منهم تبلغ بهم عبادتها أن يقربوا أنفسهم وأولادهم لها وهم أكثر ملوك الهند وأتباعهم ([٩٩]) وأما المجوس فقد عبدوها لدرجة أنهم سُمُوا بهذه الصفةِ، فقد ورد أن كلمة مجوس من الكلمات المعربة عربت من كلمة " " Maghosماغوس الفارسية التي تعنى عبادة النار([١٠٠]) وكأنها أبرز ما عرف به المجوس وعرفهم عبد الله أمين في كتاب الاشتقاق بأنهم :" جيل من الناس يقولون بالأصلين النور والظلمة وأن الخير من النور الشر من الظلمة([١٠١]) "وكان مما سنه زرادشت عبادة النار والصلاة إلى الشمس، يتأولون فيها أنها ملكة العالم، وأنها التي تأتى بالنهار وتذهب بالليل" ([١٠٢])

---

(٤) الحيوان للجاحظ تحقيق فوزي عطوى دار صعب بيروت ١٩٨٧ حـ٥ ص٢١٠
(٥) الملل والنحل للشهرستانى مكتبة الخانجى ٠ مصر د٠ ت حـ ٢ ص١٤٧
(٦) نفسه حـ٢ ص ٩٠
(٧) نفسه حـ٢ ص ٩١
(٨) نفسه حـ٢ ص٧٩ ، ٨٠
(٩) بلوغ الأرب للالوسى دار الكتب العلمية بيروت ٠د٠ت حـ ٢ ص ٢٣٤، ٢٣٥
(١٠) غرائب اللغة نقلا عن المفصل في تاريخ العرب د٠جواد على ت حـ٢ ص ٢٣٤، ٢٣٥
(١١) الاشتقاق عبد الله أمين مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر مصر ١٩٦٥ص٣١
(١٢) تلبيس إبليس لابن الجوزى دار المتنبي مصر د٠ت ص٧٥ ٠

أما عن الساميين القدماء فيلاحظ إله النار"نسكو" في أرض الرافدين هو الذي يحرق القرابين المقدسة في الطقوس الدينية، وهو رسول "Sukkal " الآلهة، فهو يتوسط عند تقديم القرابين (١٠٣) ويظهر الإله مردوخ في أساطير الدمار في صورة نارية : خاطب إبرا مردوخ مختالا عليه :

أيها الرب إن الهالة النورانية رمز ألوهيتك المشّعةِ أبداً كنجمٍ سماوي

----- وقد كسرت وجنى لونها ----- اترك مكانك وانطلق ---- ونحو الدار التي ستظهر نارها عبادتك (١٠٤)٠

وقد حكي ول ديورانت طريقة الفينيقيين في التقرب للنار بالأطفال لإرضاء الآلهة (١٠٥)، وقد عبد البابليون آلهةً كثيرةً وأن " أور" كانت مركزاً لعبادةِ القمرِ وجرت عادةُ القوم أن يقدموا لهذا المعبود ضحايا بشرية (١٠٦) ٠

وتأتى الشمس في المرتبة الثانية بعد القمر وكان السومريون يسمونه "Utu" أوتو ، وأهل أوجوريت " شبس" ، وكان يرمز له في بابل وأشور وسوريا وآسيا الصغرى ، بقرصٍ ذي جناحين ، ومن ألقابه في الرافدين نور"العلم" ونور الأعالي والأعماق، ونور السموات والأرض، ونور الإلهة وهو الذي يحي الموتى ويسير الكون ---- الخ، وهو الذي أملى حمورابى أحكام القانون (١٠٧) وتظهر الشمس في ملحمة جلجامش إلها يعطى أوامره بدخول

---

(١) الحضارات السامية القديمة سبتينوموسكاتى ترجمة السيد يعقوب بكر ، دار الرقى بيروت ١٩٨٦ ص٢٥٦ : ٢٥٨ هوامش الفصل الرابع

(٢) مغامرة العقل الأولى ٠ فراس السواح ص١٦١

(٣) قصة الحضارة ول ديورانت الشرق الأدنى القديم ، ترجمة محمد بدران حـ٢ مجلد أول لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر ١٩٧١ ص٣١٥

(٤) التاريخ في كتاب ، تلخيص حبيب سعيد ، دار الترجمة والنشر للكنيسة الأسقفية بمصر ص٧

(٥) مغامرة العقل الأولى ، فراس السواح ، ص٣٤ ،٦٩ وراجع ص٢٦، ٢٧، ٦٢ وراجع الحضارات السامية القديمة موسكاتى ١١٩، ٢٥٥، ٢٥٦

(٦) الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة ، على الشوك ص١٠٣، ١٠٤

(٧) قصص الأنبياء لابن كثير المكتبة التوفيقية مصر ١٩٨٢ ص١٢٩، ١٣٣ وراجع سورة

السفينة وغلق أبوابها، والشمس أيضاً " إله بطل اسمه "أوتو" في السومارية ([108]) وقد أشار ابن كثير إلى عبادة الكواكب في منطقة الشرق قبل إبراهيم عليه السلام ، حيث كانوا يعبدون الكواكب السبعة والذين عمروا مدينة دمشق --- وقد ناقش تقلب إبراهيم – عليه السلام - مع الكواكب ([109])

وقد عبد الإغريق كوكب الزهرة في صورة "أفريدون" وهى عند الرومان" فينوس" وهى "عشتار"([110]) وعند العبريين " ياهوه" نفسه كان يتشكل على شكل النار أو على شكل دخان مثل : موسى على الجبل " ذبيحة رابضة محترقة، وهكذا حتى قالها الرب ليشوع " أليست كلمتي مثل النار" ([111])

وقد أورد الجاحظ كثيراً من الأخبار التي تدل على مكانة النار لدى الإسرائيليين حيث جعلها الله لهم موضوع امتحان إخلاصهم وصدق نياتهم ... ، ومما زاد من عظيم شأنها في نفوسهم ، أن الله ظهر لموسى وكلمه من وسط النار، وذكر نار إبراهيم التي صارت برداً وسلاماً عليه ([112]) وقد تعددت مواضع ظهور الرب مقترنًا بصور النار في أرجاء الكتاب المقدس ([113]) .

الأنعام آية ٧٨: ٨٠

(١) الحضارات السامية القديمة سبتينوموسكاتى ص ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٥٧ هوامش فصل١

(٢) - dictionary of sumbol and Emagery p"187"

(٣) الحيوان للجاحظ ، تحقيق فوزي عطوى حـ٥ ص١٧٠، ١٧١، ١٧٦

(٤) سفر الخروج ٣: ٢ ، ٣: ٢١ ، ١٤: ٣٤ ، ١٩: ١٨ ، ٢٩: ٣٨ ، ٣٤: ١٧

أما عن النار عند العرب فمن الطبيعي أن يدلوا بدلوهم في موضوع النار خاصة، وهم قوم شديدو التأثر ببيئتهم الصحراوية الحارة والعرب أكثر الناس التصاقاً وتأثراً ببيئتهم الصحراوية، وهم يسكنون مكاناً يعد مركزاً لالتقاء ثقافات العالم القديم المذكورة آنفاً " علاوة على ترسبات تاريخهم الحافل في منطقة الشرق الأدنى القديم، فقد اعتقد بعض القرشيين بالنور والظلمة زعمين أنهم أخذوا هذا الاعتقاد من الخبرة ويسمى الإخباريون أصحاب هذا الرأي " بالثانوية" وأطلقوا على تلك الفئة المذكورة من قريش"الزنادقة".(١١٤)

وقد ذكرت أيضا "نار الحدثان" التي ظهرت بين المدينة ومكة ، وهمَّ بعضُ العربِ بعبادتها تشبهًّا بالمجوس فأطفأها خالد بن سنان (١١٥).

وقد أشار الدكتور أحمد أمين إلى معرفة العرب لعبادة النار لدى الفرس وبخاصة مذهب مانى ، وتأثرهم بهِ (١١٦) وقد أشار الجاحظ أيضاً لعبادة النار والكواكب " النار العلوية" كالشمس والكواكب ، وذكر الآية " وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون اللّه" (١١٧) واستدل ابن الجوزى بقول ابن جرير الطبري في عبادة قابيل للنار بعد قتل أخيه " وسوَّل له إبليس ذلك قائلاً له إنما

---

(٥) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام د٠جواد على حـ٦ ص١٤٥

(٦) نفسه حـ٦ ص١٤٥ نقلاً عن محاضرات الأبرار حـ١ص٧٧، نزهة الجليس حـ٢ ص٤٠٦

وراجع معجم ما استعجم للبكري حـ٢ ص ٤٣٥، ٤٣٦

(٧) فجر الإسلام د٠ احمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية "مصر١٩٦٥" ط١ ص١٠١: ١٠٥

(٨) الحيوان للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون مطبعة مصطفى الحلبي مصر١٩٦٦ حـ٤ ص٤٧٨، ٤٧٩

(١) الحيوان للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون مطبعة مصطفى الحلبي مصر١٩٦٦ حـ٤ ص٤٧٨، ٤٧٩

قُبل قربانُ أخيك وأكلته النار، لأنه كان يخدم النار ويعبدها، فانصبْ أنت نارا تكن لك ولعقبك" ([118]) كما علل لعبادة الشمس أيضاً بتزيين إبليس للقوم ([119]) وقد ذكر الدكتور محمد عبد المعين خان قصة بنى آدم وربطها بعبادة القوم للنار، حيث حفروا الأخدود لها على شكل مربع ويحشوها ويملؤوها وقودا ، ثم لا يدعون طعاما ولا شرابا ولا عطرا ولا جوهرا إلا طرحوه فيها تقربا لها ([120]) وقد تحدث الدميرى أيضاً عن طائر العنقاء وعلاقته بالشمس، وحديث خالد بن سنان ومَنعه لنار الحدثان([121])

وقد أشار الدكتور جواد على إلى صنم المحرق، وظن بعض المستشرقين أنه عرف بهذا الاسم بين العرب، لأن عبدته كانوا يقدمون إليه بعض القرابين البشرية محروقة ([122]) .

وقد ورد أن النساء في الجاهلية كن يرغِّبن في تحريق أنفسهن ([123]) كما كانت النيران تحمل في تشييع الجنائز وتتبعها النوائح وقد نهى الإسلام عن ذلك لأنه من شعائر الجاهلية ([124]) وعند القلقشندى ثلاث عشرة ناراً وذكر نار المزدلفة، والاستمطار، والحلف، والطرد، والحرب، والثعالى، والصيد، والأسد، والقرى، والسليم، والعذراء، والوسم،([125]) وزاد البغدادي عليها نار الحباحب ونار اليراعى([126]) وذكر النويرى أربع عشرة ناراً بزيادة نار الزائر أو المسافر- علاوة على النيران التي

---

(٢) تلبيس إبليس لابن الجوزى ص٦٢

(٣) نفسه ص ٦٢

(٤) الأساطير العربية قبل الإسلام محمد عبد المعين خان ، مطبعة لجنة الثقافة والترجمة ، مصر ١٩٣٧، ص٨٨، ٨٩

(٥) حياة الحيوان الكبرى كمال الدين الدميري مطبعة الاستقامة نشر المكتبة التجارية الكبرى مصر١٩٦٣ جـ٢ ص١٦٣، ١٦٤

(٦) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، د٠جواد على جـ٦ ص٢٨١

(٧) مروج الذهب للمسعودي دار الأندلس بيروت ١٩٨٣ جـ ص١٧٩

(٨) أديان العرب في الجاهلية محمد نعمان الجارم – مطبعة السعادة مصر ١٩٢٣ ص٩١

(٩) صبح الأعشى للقلقشندى المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر مصر د٠ت جـ١ ص٤٠٩

يُضرب بها المثل مثل : " نار الحباحب، ونار الغضي، ونار العرفج، ونار الحلفاء ([127]) ونار الألوسى نار الأهبة ونار الحلفى ، ونار العرفج([128]) ونار الجاحظ في الحيوان نار تهويل السباع ([129]) وقد تعرض لهذه الظاهرة كتاب الكشكول وعرض لنيران العرب في الجاهلية ([130]) وقد ورد في كتب متفرقة عن كل نوع مما ذكر من نيران العرب على حدة ، وأيضاً في متفرقات شعرية في مجموعات ودواوين ([131])

وأعتقد بعد هذا التركم من الأخبار أنه لا ينكر دور العرب ومواكبتهم لشعوب العالم في مثيولوجيا النار، والتأريخ لها في كتب أخبارهم وتاريخهم ، وسنحاول رصد أنماط تعاملهم وممارستهم مع الظاهرة محاولين تطبيق هذه الظواهر على ماصدر في العصر الجاهلي من شعر إن شاء الله .

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب للنويرى حـ١ ص١٠١: ١١٤

(٢) بلوغ الأرب للالوسى حـ٢ ص١٦١: ١٦٧

(٣) الحيوان للجاحظ حـ٥ ص١٧١: ١٧٧

(٤) الكشكول بهاء الدين العاملى تحقيق الطاهر أحمد الزاوي ، طبعة دار إحياء الكتب العربية ١٩٦١ ص٣٨٤، ٣٨٥

(٥) الأصمعيات للأصمعي ، تحقيق هارون وشاكر ، دار المعارف مصر ١٩٧٩ ط٢ ص١٩١ وراجع الحيوان حـ٢ ص٤٨٤

النار إله حاكم رهيب ومنتقم

تتسم ظاهرة النار بأنها تحمل وجهي عملة واحدة " الخير والشر" فهي بطبيعتها تعكس ازدواجية الرؤية فهي عند المسيحيين الأوائل تأخذ صورة بشعة مرعبة إذ وضعوا الحية باستخدامها في شكل إرهابي ذات رأسين أو أكثر وذات أرجل وأجنحة أو ذات لسان يندلع بالشرر ويقذف باللهب(١٣٢) وعند المصريين القدماء هي القوة والسلطة (١٣٣) وهى حيوان أسطوري يأكل ويهضم ويتبرز الدخان، حيوان ساحر لا يشبع يلتهم كل ما يلد ويتكاثر ثم يلتهم نفسه بعد أن يكون قد أتى على كل شي (١٣٤)

لذا استخدمت في الدفاع وطرد الأعداء والوحوش عند بعض الشعوب الآسيويه، إذ كان تشارينج الإمبراطور الأسطوري يأمر شعبه

أن يستخدم النار في استخراج الثعابين والحيوانات المتوحشة وإبعاد الأعداء(١٣٥) وكان المذنب يخاف النارُ، وتتجنبها الفتيات أثناء فترة الحيض الأولى ، وقد استخدم يهوة النار في الدفاع عن بنى إسرائيل بظهوره ليلا" نار تزعج عسكر المصريين وهم يطاردون موسى وأصحابه(١٣٦) ونار الإله منتقمة له يدافع بها عن حُرُماته، وتحاسب على عهد الرب، بل الربُّ نفسه نار آكلة (١٣٧) ويحمى الرب غضبه حين يسمع شراً، وتشتعل فيهم نار الرب،

---

(٦) إبليس، عباس العقا د سلسلة كتاب اليوم مصر ١٩٧٩ط ١٩١ وراجع الحيوان حـ ٢ ص ٤٨٤

(٧) - dictionary of symbol and Emagery p"187"

(٨) النار في التحليل النفسي جاستون بشلار ص٦٢ .

(١) - Stander Dictionary p "370"

(٢) - Ency of Religion vol "6" p "27"

(٣) سفر الخروج ١٤: ٢٤

وتخمد النار عند رضا الرب بعد صلاة موسى ([١٣٨]) ويسلط يهوه ناره على سدوم وعمورة في نوبة من نوبات غضبه ([١٣٩])٠

وكانت النار في هذه المنطقة تستخدم للعقاب لقوتها والتصاق القداسة بها ؛ مما جعلها موضع تحاكم واختبار وتطهير وعقاب للمجرم ومحاكمته " Ordeals " بالتعذيب وذلك بإخضاعه لضروب من الامتحان الخطير ([١٤٠])٠

وقد أخذت المراسم الدينية مع النار في هذا الغرض – محاكمة المتهم أو إثبات براءته – أشكالاً عدة منها المشي على النار Fire wolking الذي كان يستخدم عند الرومان القدماء ومازالت تروى في الهند حتى الآن ، حكايات الشخص الذي يسير على النار عاري القدمين على جمرات " Embers " من النار أو صخور ملتهبة ([١٤١]) وقد ارتبطت هذه العمليات التي تسمى بـ" الحريق الديني" بأفكار متسعة الانتشار وإن كانت تبدو معقدة فهي فكرة من الطقوس الهمجية ([١٤٢])

---

(٤) راجع سفر التثنية ٤: ٢٣ ، ٢٤

(٥) سفر العدد ١١: ١

(٦) الأسطورة والوعي عصام الدين حنفي ناصف ، دار العلم الجديد ، القاهرة ١٩٧٦ ص٥٩

(٧) - Ency of Religion vol "6" p "791"

(٨) - The Ency Americana vol " 11 " p " 257"

- Ency - of Religion vol "6" p "27"

وقد عرض فريزر لحرق النساء لخيط يعقدنه تمثل كل عقدة قصة عشق مع أحد الرجال ، وذلك أمام النار في المعبد وتعلن بصوت عالٍ أسماء الرجال الذين سجلتهم على الخيط، وحين تلتهم الآلهة الخيط في لهيبها الصافي تكون ذنوبها قد غُسلت تماماً " (١٤٣)

وكان الهنود يستخدمون طقساً شبيهاً باستخدام النار أيضاً لحرق عقد الخيط الممثلة لخطايا العشق (١٤٤)

لذا انتشرت نار الحرب والبطش بالعدو في كثير من كتب الأخبار والأدب وسميت صراحة بنار الحرب (١٤٥).

وهذه الصورة المهيبة للنار على قدر قسوتها ، جعلت منها قوة رادعة لكل مخالفة أو إخلال أو اعتداء فكما استخدمت في الحرب استخدمت عند التحالف والتحاكم والاختبار والتطهير، فقد اعتقد العرب في الجاهلية أنها قوة سحرية، فأوقدوها في الحلف المقدس وأشهروا بها الغادرين(١٤٦) وقد أورد الطبري قصة إسلام "تُبَّع " وتحاكمهم إلى النار (١٤٧) وقد كان للعرب عند تحالفهم مراسم دينية دخلت فيها النار بشكل فعَّال حيث تشعل النار وتغمس الأيادي في الطيب (١٤٨) ويتحدث د. حسين عطوان عن نظام الأحلاف وصيغها الدينية

---

(١) الغصن الذهبي جيمس فريزر حـ١ ص١٤٢، ١٤٣

(٢) - Standerd Dictionary p "381"

(٣) راجع صبح الأعشى للقلقشندى حـ١ ص٤٠٩، وخزانة الأدب حـ٧ ص١٤٧، ١٥٠ ،الحيوان حـ٥ ص١٧١، ١٧٢ ، ونهاية الأرب حـ٥ ص١٠١، ١١٤ ، وبلوغ الأرب حـ٢ ص١٦١، ١٦٧

(٤) المطر في الشعر الجاهلي د.أنور أبو سويلم دار الجيل عمان ١٩٨٧ ص٩٥، ٩٦

(٥) تفسير الطبري مجلد ١١ حـ٢٩ ص٦٧ دار المعرفة بيروت ١٩٨٧

(٦) أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي لمنذر الجابورى بغداد ١٩٨٦ دار الشئون الثقافية العامة ص٦٣ .

([149]) وقد ذكر الجاحظ أنهم كانوا يدعون على من ينقض العهد ويحنث بالقسم وهم يتحالفون على النار ([150])

وهذا قد أشارت الدائرة الأمريكية حيث الدور الكبير للنار في نظام العقيدة وارتباطه بالطقوس ([151]) وقد جاء في البيان والتبيين شعر يحمل هذه الدلالات على استخدام النار في الحلف مثل قول أوس بن حجر:

إذا اسْتَقْبلتْه الشَّمسُ صدَّ بوجّهِهِ كَما صَدَّ عن نار المهوّلِ حَالِفْ

وقول الآخر:

حلفتْ بالمْلحِ والجمعُ شهـــد وبالنار واللاَّ ت التي هي أعظّمُ

وقول الكميت:

كهَولَةِ ما أَوّقَدَ المحلفـــوْنَ لدى الحالِفينَ وما هَـــوَّلُوا

وقول أوس أيضاً ٠

حلفتْ بالمْلحِ وبالرمادِ وبالنَّـ ـارِ وباللّهِ تسلم الحلفـــهْ

حتَّى يظلَّ الجَوْادُ منعفِـــرًا ويخضب النيل غُرَّةَ الدرقهْ ([152])

---

(٧) مقدمة القصيدة الجاهلية د٠حسين عطوان دار المعارف مصر ١٩٧٠ ص٣٦

(٨) الحيوان للجاحظ تحقيق فوزي عطوى صعب بيروت ١٩٨٣ حـ٥ ص١٥٠

(١) The Ency Americana vol " 11 " p " 257"

(٢) البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون مكتبة الخانجى القاهرة ١٩٧٥ حـ٣ ص٧،٨

وأيضا في الخزانة أورد البغدادي للكميت قوله:

هَمُ خوَّفونِى بالعَمَى هُوَّةَ الرَّدِي كما شبَّ نارَ الحَالِفينَ المهَوَّلْ (١٥٣)

وقد ورد أن نارا كانت في اليمن تحكم بينهم فيما يختلفون ، تأكل الظالم ولا تضر المظلوم وقد عرضوا على تبع التحاكم لها (١٥٤) وفيما ورد من سجع الكهان سجع الخزعى الكاهن لأمية بن عبد شمس، وهاشم بن عبد مناف: " أحلف بالضوء وبالظلمة وما بتهامة من تهمة ... إلخ " (١٥٥)

وقد كان التحالف حتى على آثار النار كالرماد ويفسر بعضهم قول الأعشى:

رضيعي لبان ثدي أم تحالفاً باسحم داج عوض لانتفرق

بأنها تحالفاً على الرماد كما يفعل الفرس (١٥٦) وهذه الصورة التي أخذتها النار في العقلية البدائية فرضتها في الحلف في شكل الابتلاء، والابتلاء اختبار صدق المتهم في جريمة ما، له صور المتنوعة وأكثرها شيوعاً الابتلاء عن طريق النار (١٥٧) وهذا يشير إلى ما للنار من قوةً وقداسة في العصور القديمة وحتى اليوم في المناطق البدوية، حتى كان طقس المشي على النار لتطهير المشترك في جريمة، أو الناطق بالكذب فيقوم بالسير على النار ليثبت براءته

---

(٣) خزانة الأدب للبغدادي ، تحقيق عبد السلام هارون الهيئة العامة للكتاب مصر ١٩٧٩حـ٧ص١٥٢

(٤) تاريخ الأمم والملوك لأبى جعفر الطبري ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، د.ت حـ١ ص٤

(٥) تاريخ الكامل لابن الأثير القاهرة المطبعة الأزهرية حـ١ سنة١٣٠١ حـ٢ ص٨

١- الأسطورة عند العرب في الجاهلية د.حسين الحاج حسن ، المؤسسة الجامعية للطباعة والنشر بيروت ١٩٨٨ ص١٣١

٢-راجع نظم العرب القبلية المعاصرة د.محمود سلام زناتي ، مكتبة الجامعة بأسيوط ١٩٩٢ ط٢ حـ١ ص٣٩٥

([158]) وكان المتهم يخضع بنفسه لهذا الحكم الإلهي، باحثا عن براءته بمروره على أكوام النار الملتهبة، أو حاملاً أسياخ النار في يده وكان هذا متبعاً في ذلك الوقت بين معظم الأمم ([159]) وهذه المعتقدات الأسطورية التي تحمل ملامح الاحترام والتقديس والمهابة للنار، جعلتها تستخدم لاختبار برائه المتهم، (ولم يتوقف ذلكَ عند الأمم القديمة فحسب ، بل امتد في ذاكرة الإنسان، حتى عصرنا هذا الاعتقاد الجازم بأن النار من الكائنات الخارقة)، وأخذ شكلاً من أشكال الكهانة كما يشير د٠محمود زناتي ([160]) حيث أفردَ جزءا من كتابه عما يسمى "بالبشعة واصفاً طقوسها ومراسمها في البيئة العربية ودور النار في كثيرٍ من القضايا كقوةٍ سحريةٍ رادعةٍ تحرق لسانَ الكاذب والمُعْتدى٠ ([161])

٣- The new Ency – Britanica vol " 4 " p "791"

٤- Man myth and magic p "970"

٥- راجع نظم العرب القبلية د٠محمود سلام زناتي ص٤١٤

٦- راجع التفاصيل فى نفس المرجع السابق ص٤٠١: ٤٠٨

النار في الصورة الخيِّرة

" نار الكرم"

إذا كان للنارِ- كما سبق – وجهها المخيف المرعب والقاسي، مما جعلها تستدعى صور الحرب والاعتداء، وتدخلت في طقوس التحاكم والعقاب والتطهير، فإن لها صورتها الأخرى الخيِّرة فهي تجمع المتناقضات وتستقر فيها وجوه النفع والضرر، وقد ناقش هذه الظاهرة وعرض الأدلة عليها قاموس الكتاب المقدس (١٦٢) ففي النار رمز للحياة والدفء والحنان والأمان ، فالنار هي الشكل الأرضي للنور السماوي والخلود، وهى رمز اللانهاية واللاموت (١٦٣) وضمن أشكالها الخَيِّرة كعنصر مطعم أنها كانت توقد على المذبح في صلاة إخناتون في المزمور الثاني ، لأن غضبه لا يهدأ إلا بالتضحيات التي تحرق على المذبح ويُسر لرائحتها كثيراً (١٦٤) وسما اعتقاد المصريين في النار حتى عُدَّ الإله نوراً في عصر نصوص التوابيت (١٦٥) وكان الناس في روما يعبدونها أمام الموقد الخاص الموجود في كل بيت وهى تقابل في ذلك الإله " هستيا" عند الإغريق(١٦٦) ٠

---

(١) راجع قاموس الكتاب المقدس مادة "نار" ص٩٨٣

(٢) - Ency -of Religion vol "6" p "30"

(٣) مغامرة العقل الأول فراس السواح ص١١٠

(٤) الرمز والأسطورة في مصر القديمة رندل كلارك ص٧٠

(٥) الغصن الذهبي جيمس فريزر ، ترجمة أحمد أبو زيد، حـ١ ص٧٥

وكانت الموائد المنزلية في روما لا تنطفئ نارها، بعدّها ممثلة لمذابح الإلهة " فستا" التي كانت تمثل انطباعاً خيراً، وتدخل طقوس الزواج والميلاد([١٦٧]) وهذا يشير إلى البعد الخيِّر في النظرةِ إلى النارِ كعنصرِ حياة مطعم مبارك حافظ، وهى في الفلكلور كانت رحيمة تدفئ الأرواح طاهرة في ذاتها، وكانت المرأة في فترة حيضها بوصفها غير متطهرة يحرم عليها النظر إلى النار أو المرور بين يديها([١٦٨]) ٠

أما في المسيحية فالنار هي القديس والرب في نفس الوقت والأضحية هي ما يحرق، والنار هي أيضاً كشفيع تحمل إلى رب الشمس والنور، وإخماد النيران هو علامة للموت والندم في الطقوس وإعادتها هو حدث سحري ([١٦٩])

وقد ناقش قاموس الكتاب المقدس النور في معانٍ رمزية ولكنها تتقارب إلى حد ما من رموز النار وتشبيهاتها([١٧٠])

وقد تدخلت النار في تقديم التقدمات على المذابح والمحرقات، فكانت تقدم التقدمات ليهوه بالمحرقات ([١٧١]) وموسى يقدم التقدمات على المذبح الذي بناه ويشعل النار بنفسه([١٧٢]) لأن الإله كان ينتعش من رائحة الدخان المتصاعد، وأنه كان يغضب

---

(٦) راجع القرابين البشرية والذبائح التلمودية عند الوثنيين واليهود د٠فتحى محمد الزغبى مطبعة غباشى بطنطا حـ١، ١٩٩٠ ص٨٦

(٧) - dictionary of symbol and Emagery p"188"

(١) dictionary of symbol and Emagery p"187"

(٢) راجع قاموس الكتاب المقدس ٩٨٤

(٣) راجع سفر التكوين ٨: ٢٠

(٤) القرابين البشرية والذبائح التلمودية فتحي الزغبى ص "١٦"

أشد الغضب إذا لم تقدم إليه أو إذا قدمت في صورة غير الصـــورة المقررة في شريعتهم ([١٧٣])

وقد أشار ابن كثير والألوسى لذلك ([١٧٤])، ومنها أيضاً أعلن الرب عهده لإبراهيم في أتون يتصاعد منه الدخان وشعلة من النار([١٧٥])٠

وبهذا المدلول الخير للنار في التراث القديم بين شعوب المنطقة والعالم، تستطيع أن نربط بين الرؤيا الخيرة للعرب تجاه النار والتي تمثلت بنار الكرم كمانحة للحياة، ورمز للإطعام والأمومة التي يبحث عنها الإنسان في الصحراء والطبيعة القاسية حوله، خاصة بالليل ؛ لذا تواترت بين أخبار العرب أحاديث نار الكرم ومشعليها وتفاخروا بها بين العشائر والقبائل والبطون، وقد ورد ذكر نار الكرم في أكثر كتب الخبر([١٧٦])

---

(٥) نفسه ص ٦٠

(٦) قصص الأنبياء لابن كثير ص٤٧، وبلوغ الأرب للألوسى حـ٢ ص٢٣٣، ٢٣٤

(٧) الفولكلور في العهد القديم حـ١ ص٤٦، حـ ٢ ص٣٤٢

(٨) راجع صبح الأعشى للقلقشندى حـ١ ص٤٠٩، ونهاية الأرب للنويرى حـ١ ص١٠١: ١١٤ ، وبلوغ الأرب للالوسى حـ٢ ص١٦١: ١٦٧، والحيوان للجاحظ حـ٥ ص١٧١: ١٧٢

النار في طقوس الاستمطار

اسْتُخدِمَت النارِ بوجهها الخيِّر بشكلٍ سحري في جلب الخير عند الإنسان البدائي، وخاصة فى عملية جلب المطر أو" الاستمطار" وأيضاً في عملية دفع الضرر كالريح أو المطر الغزير، وهذه دلالة مباشرة لتشبث الإنسان بها وتضرعه لها في أوقات شدته، لأنها عنصر مقدس خير، وقد عرض جيمس فريزر في غصنه الذهبي أن أهل القرى القريبة من دوربات "Dorpat" في روسيا يستخدمون النار أيضا في السحر التشاكلى للحصول على المطرِ (١٧٧) ، واستخدمت أيضا لجلب المطرِ عند الإغريق واليونان، فقد كان سالمينوس " Salmanus" – ملك إبليس الأسطوري يقلد الرعد بجر الأباريق، ويقلد البرق باستخدام المشاعل المتوقدة (١٧٨) ويذكر جيمس فريزر طقساً أسترالياً كانت تستخدم فيه النار بشكل طقسي سحري لاستنزال المطر وإبقائه وفى "ماينبور" أيضاً كانت تستخدم طريقة بواسطة النار في بريطانيا الجديدة وكذلك في أسترليا قبيلة " الأنولا" وقبائل التلوجو" (١٧٩) وكان الإسكيمو يشعلونها على الساحل مقيمين حفلاً ويغنون حولها لتهدئة الرياح(١٨٠)

وطقوس الاستمطار عند العرب لا تخفى على من اطَّلع على كتب الأخبار والأدب حيث تصور الطقوس السحرية مع النار، فيروى الجاحظ أنهم إذا أرادوا الاستمطار في الجاهلية اجتمعوا وجمعوا ما قدروا عليه من البقر ثم عقدوا في أذنابها وعراقيبها السَلع والعَشر، ثم صعدوا بها جبلاً وعراً وأشعلوا النيران وضجوا بالدعاء والتضرع ، وكانوا يرون أن ذلك من

١- الغصن الذهبي جيمس فريزر ترجمة د٠أحمد أبو زيد حـ١ ص٢٥١

٢- نفسه حـ١ ص٢٨٩

٣- نفسه حـ١ ص ٢٥٤ ، ٢٥٥، ٢٦٥

٤- نفسه حـ١ ص٣٠١

أسباب السُقيا([١٨١]) وقد ذكر الدكتور جواد على ثلاثة أنواع من الشجر وهى " السلع والعشر والشبرق" في طقس الاستمطار([١٨٢]) .

وأورد في موضع آخر قول العجاج في هذه المناسبة :

سَارٍ سَرَى مِنْ قَبلِ الْعَيْنِ فَجَرْ غُرَّ السَّحَابِ والمَرَابِيعَ البكَرْ

والعين هنا قبلة بالعراق كانوا يتوجهون إليها عند عملية الاستمطار([١٨٣]) ، وتابعه الألوسى عن نار الاستمطار ، وقد أحال التفصيل للحيوان عند الجاحظ، وقد ربط بين عبادة النار عند العرب، وعبادة البقر عند الهنود في هذه الظاهرة([١٨٤]) وإذا تأملنا طقس الاستمطار، نلاحظ علاقة ما بين عناصر هذا الطقس والغرض منه ، فالبقر حيوان غير عادى بل له رصيد أسطوري عريض لا يزال حتى يومنا في الهند وغيرها، وعلاقته بالمطر قوية وخاصة الثور رمز الخصب والنماء ورمز الإله القمر المتحكم في المطر والسحاب، فيذكر نيلسون أن العرب الجنوبيين قد اتخذوا من الثور رمزاً لإلههم القمر وقد دعي القمر في بعض النصوص ثوراً ([١٨٥]) .

٥-الحيوان للجاحظ حـ٤ ص ٤٦٦، ٤٧٠

٦- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام د٠جواد على حـ٦ ص ٢٢١

(١) المرجع السابق حـ٦ ص٨١٦

(٢) بلوغ الأرب للالوسى حـ٢ ص٣٢٣

(٣) التاريخ العربي القديم ديتلف نيلسون ترجمة فؤاد حسنين مكتبة نهضة مصر١٩٥٨ ص٢٠٧

ويبدو أن هناك علاقة بين القمر وبفعل الذي يطلق عليه في اليمنية الجنوبية الرب، وهى نفس دلالة كلمة بعل لدى اللغويين العرب (١٨٦) ويشير د٠ عبدا لجبار المطلبى إلى هذه العلاقة قائلا : " ويبدو أن النار المضرمة في حطب السلع والعشر، ما هي إلا تطور لطقوس واحتفالات قديمة تتصل بهذا الإله الثور (١٨٧)٠

وإذا كان الثور رمزً للإله القمر أحد أشكال النار أو النور وآلهتها في الفكر القديم أو أحد أبنائها في الأسطورة، إذن لم نبعد عن حكايتنا مع النار كأم للآلهة حيكت حولها الأساطير المختلفة ٠

وأما عن دور النار في طقس الاستمطار فلها دور لا يقل عن دور البقر في العقائد البدائية، بل هي الأصل في الطقس، فالنار إله النور وهى ربة الطهارة والنقاء، وقد أشار د٠ مصطفى الشورى إلى قداسة نار السلع والعشر(١٨٨) ويهمنا هنا العلاقة بين النار وإنزال المطر، فقد ارتبط المطر بالنار أصلا في الحس اللغوي عند العرب بشكل دقيق وهذا الارتباط له دلالة رمزية على المعنى الروحي للنار فسموا المطر" ودقا" و سموا النار" وديقة" (١٨٩) ٠

---

(٤) لسان العرب لابن منظور، دار المعارف مصر د٠ت مادة "بعل" حـ١ ص٣١٥، ٣١٧

وانظر المصباح المنير لأحمد المقري الفيومي تحقيق د٠عبد العظيم الشناوي دار المعارف مصر ١٩٨٨ ص٥٥،، ٥٦ وراجع النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير تحقيق طاهر أحمد الزاوي ، ومحمود محمد الطناحى دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسى البابى الحلبي د٠ت٠ مصر حـ١ ص٨٤١

(٥) مواقف الأدب والنقد د٠عبد الجبار المطلبى ص١٠٧ نقلاعن المطر فى الشعر الجاهلي د٠أنور أبو سويلم ص٩٨

(١) الشعر الجاهلي تفسيراً أسطورياً د٠مصطفى الشورى دار المعارف مصر ١٩٨٢ ص٩٧

(٢) راجع اللسان مادة "ودق" حـ٦ ص ٤٨٠٠
ومختار الصحاح مادة "ودق" والمعجم الوسيط إشراف عبد السلام هارون مطبعة مصر ١٩٦٠ حـ٢ ص١٠٣٣

(٣)الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية د٠إبراهيم عبد الرحمن مكتبة الشباب مصر١٩٧٩ ص٦٧، ٩٨

والبيئة العربية كانت جوا " ملائماً" لاحتضان ونمو هذه الطقوس التي أشار إليها الدكتور إبراهيم عبد الرحمن بأنها الشكل الأول من أشكال الأساطير لدى الجاهليين قائلا:" أما الشكل الأول فيتمثل في الأساطير التي ارتبطت بطقوس العبادة في ديانات الجاهليين، وتقف هذه الأساطير عند تسجيل الطقوس القولية التي تصاحب الطقوس القولية والعملية ([١٩٠])

النار والتصوير الميثولوجى للإنسان

ومن الصور الخيِّرة للنار في الخيال القديم استعارتها لرسم صورة الإنسان رجلاً كان أو امرأة؛ لأن في استعارة هذه الصور منها تمثلا لآلهة عظيمة في عقيدة الإنسان القديم تملأ عليه حياته كالشمس والقمر والنار، فالنار مثلا استخدمت كرمز للخصوبة أو نائباً عن الآلهة استخدمتها النساء في وضع أطفالهن حديثي الولادة عليها، وكان الأستراليون يستخدمون عصا النار في عملية الختان ([١٩١]) وكان العذارى المقدسات يشرفن على عبادة النار الأبدية في إقليم لاتيوم ([١٩٢]) وكان الهنود يتخذون تمثالين من الطين أحدهما في صورة رجل والآخر في صورة امرأة وهما يرمزان للشمس الإله الخالق([١٩٣]) .

والشمس هي أيضاً "الإله" Utu " عند السومريين " وشبش" عند أهل أجوريت وله رموز في بابل، وأشور، وسوريا، وآسيا الصغرى ، وهو في المرتبة بعد أبيه القمر([١٩٤]) وهذه الصورة المقدسة للنار والشمس والتي يُوكَل لها تمثل صورة الإنسان كأنثى في شكل أمومى

---

(٤) - Ency -of Religion vol "6" p "28"

(٥) الغصن الذهبي حـ١ ص٧٦

(٦) الفلكلور في العهد القديم جيمس فريزر ترجمة د٠نبيلة إبراهيم حـ١ ص٩٥

(١) الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة على الشوك ص٥٣

راجع مغامرة العقل الأولى فراس السواح ص٤٨ عن اللوح الأول

خيَّر يهب الحياة والخصوبة بالميلاد والخلود، فالنار هي الشكل الأرضي للنور السماوي وهى رمز اللانهاية واللاموت ([١٩٥]) والعلاقة قوية بين الشمس كصورة من صور النار، بل يذهب البعض إلى الدافع لتعظيم النار هي نسبتها في العقل الإنساني البدائي إلى الشمس ([١٩٦]) .

وعبادة الشمس عبادة متطورة في الفكر القديم ، حيث يقول العقاد: "إن عبادتها تستلزم درجة من الثقافة والتطور، وصورة المرأة كصورة خيرة نافعة على الأرض قد ارتبطت بصورة الشمس التي توسموا فيها الخير والخصب، وجعلوها مصدرا للعدل والقانون ([١٩٧]) .

ويشير الدكتور البطل إلى أن المرأة والغزالة والنخلة من الرموز التي توحدت في اللات التي هي الشمس([١٩٨]) ، وهذه العلاقة تندرج تحت المستوى الرمزي والإشارى وهو ثاني مستويات التفكير الميثولوجى الديني عند الجاهليين كما وضحه الدكتور إبراهيم عبد الرحمن ([١٩٩]) ، ويظهر عنترة هذه العلاقة صراحة في :

كَمْ لَيْلَـةٍ عانقتُ فيهَـا غَادَةً يَحّيَا بِها عِنْدَ المَنام ضَجِيّعُهَا

شَمْسُ " إِذا طَلَعَتْ سَجَدْتُ جَلالَةً لجِمَالِهَا وَجَلاَ الظَّلاَمَ طُلُوْعَهَا([٢٠٠])

---

(٢) - Ency -of Religion vol "6" p "30"

(٣) الحكاية الخرافية فريدريش فون ديرلاين ترجمة د٠نبيلة إبراهيم ص٨٣

(٤) الله – عباس محمود العقاد – دار المعارف مصر ط٢ د٠ت ص٣٦

في طريق المثيولوجيا عند العرب محمود سليم الحُوت مطبعة دار الكتب بيروت١٩٥٥ص٩١: ٩٤

(٥) الصورة في الشعر العربي د٠على البطل دار الأندلس ص٨

(٦) بين القديم والجديد دراسات في الأدب والنقد د٠إبراهيم عبدالرحمن٠ مكتبة الشباب مصر ص٥٧ ٠

(٧) شرح ديوان عنترة ص٨٢ دار الكتب العلمية، بيروت ط١ ١٩٨٥ ٠

وقد أوردت كتب التاريخ عن عبادة الشمس في البيئة العربية كثيراً، منها ما أورده ابن كثير من أن الشمس كانت تُعْبَدَ في سبأ "عرب الجنوب" في قصةِ سليمانُ من داوود عليه السلام ([٢٠١])، وذكر صاعد الأندلس أن حِمْيَرعبدتها أيضاً، ([٢٠٢]) وقد ربط على الشوك بين لفظ الأضحية العربية ووقت شروقَ الشمس (الضحى) ([٢٠٣]) وهنا إشارة إلى رواسب عبادة الشمس وتقديم القرابين لها عند بزوغها، وقد أكدت المعاجم العربية هذه العلاقة، ([٢٠٤]) وفى قصة إبراهيم عليه السلام - كأحد الساميين- تقرير لعبادة الشمس في المنطقة، ولم تكن العبادة بشكل تلقائي عفوي ، وإنما نتجت عن مراحل تطور وتأمل فيقول تعالى:" فلما جنَّ عليه الليلُ رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدني ربى لأكونن من القوم الضالين" ([٢٠٥])

وقد أثبت المفسرون عبادة الشمس في المنطقة العربية عند تفسيرهم لتلك الآية([٢٠٦])

وهكذا يكون قد انكشف لنا بصيص من المعرفة حول دور النار، والشمس في الفكر القديم وارتباطهما بصورة الإنسان خاصة عند المدح والتعظيم فهما رموز لآلهة الخير، وبحثنا في التراث الجاهلي عن الصور التي تتمثل فيها هذه الظاهرة عن استخدام صور النار أو الشمس

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير مكتبة المعارف بيروت ١٩٧١ ط٢ حـ٢ ص٢٢

(٢) طبقات الأمم ، صاعد الاندلسى تحقيق حياة العيد بو علوان دار الطليعة بيروت ١٩٨٢ ص١١٥، ١١٦

(٣) الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة ص١٧٢

(٤) راجع المصباح المنير ص٣٥٩"مادة ضحى" والمعجم الوسيط حـ١ ص٥٣٧، واللسان حـ٤ ص٢٥٦١

(٥) سورة الأنعام آية "٧٥"

(٦) راجع تفسير الجلالين ٠ لجلال الدين السيوطى وجلال الدين المحلى تحقيق د٠شعبان محمد إسماعيل شركة الشمرلى مصر د٠ت ص١١٢

الفخر الرازي مفاتح الغيب للفخر الرازي دار الفكر للطباعة والنشر بيروت ٨٥ مجلد٧ حـ١٧ ص٤٣ وأنوار التنزيل للبيضاوي دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت د٠ت ص ١٨١، والكشاف للزمخشرى تحيق محمد الصادق قمحاوى مطبعة مصطفى البابى د٠ت حـ٢ ص٣٠ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير مكتبة دار التراث القاهرة د٠ت حـ٢ ص٨٥٢ والقرطبي لأبى عبد الله القرطبي- دار الريان للتراث – مصر د٠ت حـ٤ ص٢٤٦٠

في رسم صورة الإنسان ومدى توظيفها الفني بعد الكشف عن الرواسب والجذور التاريخية في التاريخ الميثولوجي العربي ٠

وقد لاحظ الباحث أثناء بحثه تواتر استخدام صورة الشمس في وصف المرأة خاصة دون الرجل وهذا توافق مع ما ذكر من تأنيث الشمس كإلهٍ قديمٍ ممثل للأم السماوية وهذه الملاحظة تؤكد العلاقة بين صور الشعر وما كان يعتقده الإنسان قديما، وقد أشارت بعض الدراسات لذلك وهنا يتأكد الأمر حيث لم

تقع يد الباحث تقريباً على بيت يوصف فيه الرجل بالشمس إلا بيت النابغة وهو يمدح النعمان فيقول :

" فإنك شمسُ والملوك كواكب"

وقد يُعَدَّ هذا انحرافاً فنياً أو تطوراً لصور الشعر إنْ صَحَّ الافتراض في مراحل وهنت فيها علاقة الشعر بأصوله القديمة٠

ومن العبادة القديمة للشمس لدى العرب انبعثت التأثيرات المختلفة : فَنسِجَتْ الأساطير فكان الأطفال يتقربون إلى الشمس بأسنانهم لتعطيهم أسناناً جميلةً "أسنان غزْل" (٢٠٧)٠

وقد أورد النويرى التعبيرات التي يقولونها في هذه العملية(٢٠٨) وقد تناول الألوسى هذه الظاهرة وعرض بيت الشعر (٢٠٩) ٠

= القرطبي دار الريان للتراث مصر د٠ت حـ٤ ص٢٤٦٠

(١) راجع المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام د٠جواد على حـ٦ ص١٧٧

(٢) راجع نهاية الأرب للنويرى حـ٣ ص١٢٢

(٣) بلوغ الأرب للألوسى حـ٢ ص٣١٨، ٣١٩، ديوان طرفة ص٥٢

بَدَّلَتْهُ الشَّمْسُ من منبتِــه بَرَداً أَبْيَضَ مَصقُولَ الأَثَرُ

ويقول طرفه : ([٢١٠])

سَقَتهُ إِيَاهُ الشَّمْسُ ألاَّ لثاثةُ أُسِفَّ وَلَمْ تَكْدِمْ عَلَيْه بإِثْمِدِ

وقد ناقش الدكتور الحوفي هذه الظاهرة ، وأشار إلى ترسبها في الشعوب العربية حتى الآن وذكر الأبيان:

وَأَشْنَبَ واضحٍ عَذْبِ الثَّنايَا كأنَّ رضا بَهُ صَافِى المُدَامِ

كَسَتْهُ الشَّمْسُ لوناً مِنْ سَناهَا فَلاَحَ كأنَّه بَرْقُ الغَمَــامِ ([٢١١])

وهذه الأسطورة تشير إلى ما كان للشمس من مكانة في الخيال الشعبي العربي كإله معبود واهب للخير، من هنا كانت المرآة إحدى الصور الخيِّرة التي تمتّ بصلة ما لهذا الإله السماوي المقدس " الشمس" .

واقترنت أيضاً صورة الرجل بصورة القمر كأحد صور النار السماوية في الفكر القديم والأب في الثالوث السماوي المقدس والذي سبقت عبادتُه عبادةً الشمس الأم المقدسة عند الساميين الجنوبيين، فبدأ في العربية الجنوبية إلها هاديا للناس مهدئاً للأعصاب وسميراً لرجال القوافل من التجار وأصحاب الأعمال في الليالي اللطيفة المقمرة بعد حرٍ شديدٍ تبعثهُ

---

(٤) راجع ديوان طرفه دار صادر بيروت د.ت ص٢٢، ٧٦٥

(٥) الحياة العربية من الشعر الجاهلي د.أحمد محمد الحوفى مكتبة نهضة مصر للطبع والنشر مصر ١٩٦٥ ص٤٢١ .

الشمس المحرقةِ ([٢١٢]) ويشير بركلمان إلى أن الرب القديم للكعبة هو الإله القمري "هُبَل" ([٢١٣]).

ومن أسماء إله القمر عند عرب الجنوب : "ود" عند المعينيين و" المقه" عند البئيين و"عم" عند قتبان، "وسين" في حضرموت ، كما في بابل ([٢١٤]) وذكر ابن خلدون أن عاداً كان كافراً يعبد القمر وأنه كان على عهد نوح، ([٢١٥]) وقد عرض ابن الجوزى لعبادة القمر، وقد ضمنها تلبيسات إبليس ([٢١٦]) وقد اتخذ الصابئة له صنما كأحد الكواكب السبعة التي كانوا يعبدونها ([٢١٧])

ولم تنته رؤية العرب للقمر عند العبادة ووضع الأصنام والتماثيل له ، بل تسرب إلى الخيال الشعبي والأساطير، ومنها ما أورده السيوطى ([٢١٨]) في كتابة المزهِر، من الحوار مع القمر بشكل خيالي تبدو فيه مكانة القمر في الخيال العربي، (٧) وذكر النويرى أن قوماً من العربِ اعتقدوا أن من ولد له ولد في القمراء تقلصت غُرلته فكان كالمختون.([٢١٩])

---

(١) المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام د.جواد على حـ٦ ص٥١، ٥٢

(٢) نفسه حـ٦ ص٢٥٢، ٢٥٣ وراجع تاريخ الشعوب الإسلامية كارل بروكلمان ترجمة نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين – بيروت ط١١ سنة١٩٨٨ ص٢٦

(٣) الحضارات السامية القديمة سبتينوموسكاتى ص١٩٤

(٤) تاريخ العلامة ابن خلدون . دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٦٦ حـ٢ ص٣٨

(٥) راجع تلبيس إبليس لابن الجوزى مكتبة المتنبي مصر د.ت ص ٥٢: ٦٢

(٦) في طريق المثيولوجيا عند العرب محمود سليم الحوت ص٨٢:٧٩

(٧) المزهر في علوم اللغة للسيوطى دار إحياء الكتب العربية مصر د.ت حـ٢ ص٥٢٧

(٨) نهاية الأرب للنويرى حـ٣ ص١٢٢ .

وأعتقدُ أن هذه العلاقة موجودة حتى الآن بين عملية الختان والقمر في ريف بعض البلاد العربية، فهم يحافظون على أن يكون الختان قبل نهاية الشهر القمري حتى إذا هلَّ الهلال خرج المختون، مطمئنا لشفائه٠

وللقمر علاقة بالذكورية ، فهو إله ذكر لذا ارتبط غالبا بصورة الرجل والثور، وكثيرا ما وردت صورة الرجل في الشعر الجاهلي موصوفاً بصورة القمر، وقد سأل ابن الكلبي مالك بن حارثة قائلا : صف لي "ودا" حتى كأني أنظر إليه قال:" كأنه تمثال رجل كأعظم ما يكون الرجال قد ذبر عليه حلتان" وقد وافقه الفخر الرازي في أن "ودا" صنم لقوم نوح وكان لقريش، وبه سُمي عمرو بن عبدود وذلك في تفسير سورة نوح([٢٢٠])

وقد أشار الدكتور عبد الحميد يونس ، إلى تذكير القمر وتأنيث الشمس وتباين رمزيهما في المأثورات الشعبية ([٢٢١]) وكانت رموز القمرِ الأرضية مذكرة في كثير من الدراسات والمصادر فعده د٠على البطل الثور الوحشي الذي عبد في الجزيرة ورفع باسم "ود" رمز للقمر([٢٢٢]) وقد أشار الألوسى إلى اتخاذ العرب صنماً للثور قائلا: " ومن شريعة عبادتهم أنهم اتخذوا صنما على شكل عجلٍ وبيد الصنم جوهرة، يسجدون له ويعبدونه ويصومون له أياما معلومة من كل شهر٠٠٠إلخ" ([٢٢٣]) ويقول دتيلف نيلسون:"وليس

---

(١) الأصنام لابن الكلبي تحقيق د٠أحمد كمال زكى ، الدار القومية للطباعة والنشر مصر ١٩٦٥ ص٥٦
(٢) مفاتح الغيب الفخر الرازي مجلد١٥ حـ٣ ص١٤٤
(٣) راجع معجم الفلكلور د٠عبد الحميد يونس مكتبة لبنان ، بيروت ١٩٨٣ باب "القاف" ص١٧٧
(٤) الصورة في الشعر العربي د٠على البطل ص٨
(٥) بلوغ الأرب ٠للألوسى حـ٢ ص٢١٦ ٠

عبثاً أن نرى في اللغة العربية تعبير النيران للشمس والقمر، ويتخذ القمر أسماء إلاهية متحركة في جزيرة العرب فهو"رخ – وسين – وشهر- وعم – والمقه – وود – واللات – والسيد" وقد اتخذ العرب الجنوبيون من الثور رمزاً "لإلههم القمر فعُدَّ الثور من الحيوانات المقدسة التي ترمز إلى الآلهة ، وقد

دعي القمر في بعض النصوص ثوراً (٢٢٤) وتظهر العلاقة بين القمر وبعل الذي يطلق عليه في اليمنية الجنوبية " الرب" حيث تتوحد الكلمات في المعنى اللغوي، فالثور هو " السيد والمالك والرب" (٢٢٥) .

مع ملاحظة ما أورده ديتلف نيلسون آنفا أن " السيد" من أسماء القمر في جزيرة العرب، وهذه علاقة ليست عاديةً وقد ترتب عليها كثير من المعتقدات التي انعكست في الممارسات الأسطورية لعمليات الاستمطار وانعكست أيضاً على الفن؛ فكان القمر دائماً رمزاً محموداً" للرجل متكامل الرجولة فوصف به الرجل الممدوح في شعر الجاهلين.

وينبغي الوقوف ببحث متأن أمام هذه الصور حتى نتمكن من وضع أيدينا على الجذور الأسطورية والدينية لصور الشعر القديم لفك كثير من مضامين الظواهر الفنية في هذا التراث.

وقد لاحظ الباحث أثناء مروره على مدونات الشعر الجاهلي ، أن صورة القمر غالباً ما استخدمت لوصف الرجل خاصة، وهذا تطابق عجيب بين استخدامات الشعراء الجاهليين، والتراث الديني الضارب في القدم، وقد أشارت لذلك بعض الدراسات، وتتأكد

---

(١) التاريخ العربي القديم ديتلف نيلسون . ترجمة فؤاد حسنين مكتبة النهضة مصر ١٩٥٨ ص٢٠٧

(٢) لسان العرب لابن منظور مادة "بعل" حـ١ ص٣١٥: ٣١٧

وراجع المصباح المنير ص٥٥، ٥٦، وراجع النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير حـ١ ص١٤١ .

هنا هذه الفكرة فلم تقع يد الباحث بعد تعمد الإحصاء على وصف للنساء بالقمر إلا على بيت لأبى الأسود بن يعفر النهشلى يصف فيه النساء قائلا:

والبيضُ تمشى كالبدورِ وكالـدُّمىَ

ونواعـمُ يمشينَ بالأرفـادِ([٢٢٦])

وهذا البيت إذا قورن بما ورد بوصف الرجل بالقمر لا يعد إلا انحرافاً فنياً عن مسار الشعر الجاهلي وتقاليده المرتبطة بالترُث الأسطوري القديم ٠

اتصال العرب بالشعوب الأخرى
كمصدر ثقافي أسطوري

وعلى الرغم من إيماننا بفكرة اللاشعور الجمعي كما شرحها يونج، إلا أننا نعضّدُ هذه الفكرة بآراء المؤرخين، ومؤلفي دوائر المعارف حول اتصال العرب بالحضارات المجاورة لهم ليصبح احتمال التأثير والتأثر في مجال أساطيرهم حول تفسير العالم وظواهره – والنار من هذه الظواهر- أكثر قبولاً وتأكيداً٠

فعن علاقة العرب مع المصريين القدماء يقول البلاذرى :" إنَّ من القبائل العائدة التي أقامت شمالا من توغلوا في مصر زمن الفراعنة أسسوا دولةً هناك " ([٢٢٧]) ويشير فيليب حتَّى، إلى تأثر الجزيرة العربية بثقافة وادي النيل والرافدين ([٢٢٨]) ويذكر صاعد

---

(٣) المفضليات ص٢٦٨ ٠

(١) أنساب الأشراف للبلاذرى نقلا عن الشعر الجاهلي تفسيرا أسطوريا ص ٨٢

(٢) تاريخ العرب د٠ فيليب حتى دار الكشاف بيروت ١٩٥٨ حـ١ ص٣٨: ٦٠

الأندلسي عن العماليق ساكني الجزيرة أنهم أحاطوا بعلم العرب العاربة والفراعين العاتية وأخبار أهل الكتاب ([٢٢٩]) ٠

ويؤكد الدكتور أحمد كمال زكى ، هذه العلاقة قائلا إن عناصر من عرب الجزيرة أسهمت في بناء حضارة نقادة الأولى جنوبي أسيوط وذلك قبل قيام حكم الأسرة الأولى بمصر ٣٨٥ق٠م [٢٣٠]

ومع الهنود كأصحاب أقدم حضارة من أقدم حضارات العالم لم يحرم العرب من الاتصال بهم فقد تاجروا مع الهنود [٢٣١] بل نافسوا البابليين في الاتجار مع الهنود [٢٣٢] وقد ورد في كتب الخمر والمعاجم التاريخية واللغوية إشارات لهذه العلاقة – بين العرب والهنود – من قديم ٠

فيربط الألوسى بين خشب المندل المستخدم في نار القرى إلى بلد بالهند تسمى " مندل" [٢٣٣]

وياقوت الحموي يذكر أن البصرة كان من أسمائها أرض الهند ([٢٣٤]) وقد ربط بعض الباحثين المحدثين بين تسمية السيف بالهندي والمهند والهنداوى ببلاد الهند واستدل بذلك على تلك العلاقة بين العرب والهنود٠

---

(٣) طبقات الأمم صاعد الأندلسى، تحقيق حياة العيد بوعلوان دار الطليعة بيروت د٠ت ص١١٧: ١١٨

(٤) الأساطير د٠ أحمد كمال زكى دار العودة بيروت ١٩٧٩ ص ١٠ نتخت

(٥) - Ency -of Islam vol "3" p "237" , "245" Lei den London 1936

٦- حضارة العرب جوستاف لوبون ١١٩: ١٢٠ نقلا الحياة العربية من الشعر الجاهلي للحوفى ص ٩١ وراجع تاريخ العرب فيليب حتى حـ١ ص٦٣ ٠

٧- بلوغ الأرب للالوسى حـ١ ص٧، حـ٢ ص١٦١

(١) معجم البلدان ياقوت الحموي مادة "بصر" دار صادر بيروت د٠ت ص٤٣٢

وإذا تركنا الهنود وتوجهنا إلى الفرس نجد علاقتهم بالعرب أكثر تميزاً عن غيرها، إذ تتسم بتعدد جوانبها جغرافيا وتجاريا وثقافياً ودينياً وعسكرياً ، فلا يُجهل مجاورة الفرس للعرب من ناحية العراق والتقاؤهم بهم في تجارتهم ، ويذكر ابن هشام أصحاب الإيلاف وهم هشام ونوفل (٢٣٥) ومن الناحية العسكرية وطئ شعر بن مرعش أرض العراق وفارس وخراسان وافتتح مدائنها وبنى مدينة سمركند " سمرخرب " (٢٣٦) سمرقند ، وقد سيطر الفرس على بلاد العرب الجنوبية والتحموا مع العرب مباشرة (٢٣٧) وعليه ترتبت آثار متنوعة ، فهناك بعض الأسماء في العربية من الأصل الإيراني والفارسي (٢٣٨) وقد أنشأ العرب مدنا متاخمة – لفارس مما جلب كثيراً من الفرس للعرب والعكس (٢٣٩) ومما أثّر في أدب العرب بشكل قومي ، كمدح العرب وهجاء الفرس (٢٤٠) وأيضاً قد انتقل من الفرس إلى العرب عقائد منها المجوسية والمزدكية (٢٤١) كما استعان الفرس بكهان العرب (٢٤٢) .

---

(٢) سيرة ابن هشام – عبد الملك بن هشام تحقيق السقا والأبياري مطبعة الحلبي ١٩٥٥ حـ١ ص٤٧ وانظر المحبر لحبيب سعيد ص٤٢، ١٦٣، ٢٦٣، ٢٨٦

(٣) تاريخ العلامة ابن خلدون العربي حـ٢ ص٩٧

(٤) تاريخ الشعوب الإسلامية بروكلمان ص ١٦، ١٧

(٥) تاريخ الأدب العربي بلاشير ترجمة إبراهيم الكيلاني دار الفكر بيروت د٠ت ص٦٢، ٦٣

(٦) فجر الإسلام د٠أحمد أمين مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٦٥ ص٢٢: ٢٩ ، ٨٩: ٩٠

(٧) تاريخ الكامل لابن الأثير المطبعة الأزهرية ١٣٠١هـ حـ١ ص٢١٥

(٨) بلوغ الأرب للألوسى حـ٢ ص٢٣٣، ٢٣٤

وراجع الإسلام والحضارة ، محمد كرد على ، ص١١٧: ١١٨ دار الكتب المصرية مصر١٩١٤

(٩) تاريخ الكامل لابن الأثير حـ١ص٢٢: ٢٣

وأما الساميون وهم أصل العرب وأجدادهم ، فيذكر ابن خلون أن العرب سكنوا بابل قبل الجزيرة وتركوها عندما داهمهم بنو حام ([٢٤٣]) وذكر البعض عن صلة العرب بالكلدانيين والأشوريين والعبرانيين والحبش، ([٢٤٤]) وأرجع البعض تمدن بابل وأشور إلى اتصالهم بعرب الجزيرة المعروفين بسكان عربة ([٢٤٥]) وكان من آثار ذلك على اللغة العربية أن ستةً وعشرين لفظاً في القرآن الكريم أصلها حبشي أكثرها يرجع إلى أمور دينية مثل : الحواريين ومنافق، ومحراب ومنير٠٠٠ الخ " ([٢٤٦]) وظهر هذا التأثير على المستوى الأدبى بدخول شعر المجون والهجاء، وقد مثل ابن سلام لذلك بالشاعر " سحيم" الذي اشتراه عبد الله بن عباس لعثمان بن عفان رضي الله عنهم،([٢٤٧]) وعموماً فالساميون وحدة واحدة وقد حافظ العرب بالذات دون غيرهم على التراث السامي القديم ([٢٤٨]) ٠

واليهود كشعب سامي قد تأثر بالديانة السامية ([٢٤٩]) وأيضا أثروا في العرب حيث التواجد التاريخي لهم على خريطة بلاد العرب كان له مردوده على الخريطة الفكرية لساكني هذه الجزيرة وذلك من منطلق التأثير والتأثر وصلة اليهود بالعرب وقد أشار إليها الدكتور جواد على، ([٢٥٠]) وقد دلل بروكلمان على هجرة اليهود إلى شمال الحجاز من

---

(١) راجع تاريخ العلامة ابن خلدون حـ٢ ص٣٤

(٢) تاريخ العرب القدامى محمد فخر الدين المعنى مكتبة الطلبة القاهرة ١٩٣٣ ص١١٢

(٣) العرب واليهود في التاريخ د٠أحمد سوسة دار الحرية للطباعة مصر ١٩٧٢ص١١١، ١٤١
وراجع القاموس المحيط مادة "عرب"

(٤) الإتقان في علوم القرآن جلال السيوطي ، المكتبة الثقافية بيروت حـ١ ص١٣٧

(٥) طبقات فحول الشعراء ابن سلام الجمحى شرح محمد محمود شاكر ص٧١

(٦) الحضارات السامية القديمة سبتينوموسكاتى ص٥٠، ٥٧، ٢٢٤

(٧) راجع قصة الحضارة وول ديورانت ترجمة محمد بدران
لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٧١ مصر " الشرق الأدنى القديم " حـ٢ ص٣١٩

(٨) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام د٠جواد على حـ٦ ص١١، ٥١١

فلسطين واستعرابهم، بغناء بدّو شبه جزيرة سيناء وهم يسقون عند البئر بأغانٍ تشبه نشيد البئر عند الإسرائيليين ([٢٥١])

ويشير في موضع آخر إلى أن اليهود حملوا نفراً من العرب على اعتناق دينهم وأفكارهم ([٢٥٢]) وقد استدل الدكتور إبراهيم عبدالرحمن على تركيبة العرب العقائدية المتعددة باتصالهم باليهود ([٢٥٣]) وكان لذلك آثاره الفكرية والأدبية والدينية ؛ مما حمل صاحب تفسير المنار إلى الحديث عن هذه الصلة عند مناقشة بعض التفسيرات على أنها من الإسرائيليات وأن اليهود امتدت أفكارهم وخرافاتهم في بيئة العرب حتى إلى المسلمين في كتبهم ([٢٥٤]) .

إذن نستطيع أن نربط بين ما اعتقده العرب ومارسوه تجاه ظاهرة النار، وعقائد الشعوب الواردة وممارساتهم حيث هذا الاتصال المباشر مع هذه الثقافات، فالشعوب يُؤثر بعضها في بعض ، فلا يستبعد تأثير العرب بشعوب العالم الخارجي، ولا أدرى كيف يتهمون بعد ذلك بالتخلف والعزلة والفراغ الثقافي والديني؟! ([٢٥٥])

---

(٩) تاريخ الأدب العربي كارل بروكلمان ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف مصر ١٩٨٨ حـ١ ص١٢١

(١) العرب والإمبراطورية العربية كارل بروكلمان ص٢٩

(٢) الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية د٠إبراهيم عبد الرحمن محمد ص٢٥، ٦١

(٣) تفسير المنار محمد رشيد رضا ، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت د٠ت حـ٤ ص٦١، ٦٨

(٤) راجع في ذلك : فجر الإسلام د٠أحمد أمين ص ٣٣، ٣٥، في نقله الرأي "أوليرى" وهجومه على العرب إثناء دفاع د٠احمد أمين عن العرب

والعرب بعد عرض اتصالاتهم بالعالم واشتراكهم مع غيرهم من البشر في كثير من الأفكار والمعتقدات وبخاصة موضوعَ النارِ، لا يمكن إنكار ما كان لهم من ثقافة وفكر وأساطير، رغم ما وجه إليهم من اتهامات وخصوصاً في مرحلة ما قبل الإسلام " الجاهلية" كالبداوة والسذاجة والمادية وضيق الخيال وضعف الفكر، وعدم القدرة على مواكبة الأجناس الأخرى في فنونهم (٢٥٦)

ومن العجيب أن أكثر هذه الهجمات وأشدها ضراوة كان مصدرها بعض المسلمين؛ حمية منهم على الإسلام ظنا بأن ذم المرحلة السابقة إنما هو مدح للإسلام، وهذا مألوف بين كثير من الأمم والأديان وقد ذكر الدكتور على البطل وصف المسيحيين للمرحلة السابقة للمسيح بالجاهلية،(٢٥٧) ويبدو أن هذا على الإسلام وليس له، والإسلام في حد ذاته دليل على استعداد العرب وقدرتهم على استيعاب فكرة الدين الجديد وتقبله، وعلى قدر عظمة الإسلام كانت عظمة العقليات التي أدركت جوانب هذه العظمة فاتبعوه، أو عارضوه، فجادلوه، وقد وصفهم القرآن بأنهم قوم" جدلون" (٢٥٨)، وهذا المستوى اللغوي والبلاغي للقرآن يثبت أنه من غير المعقول أن يُنزَّل على قوم غير مؤهلين لغوياً وأدبياً ولابد أن يكونوا

---

(٥) راجع فجر الإسلام أحمد أمين ص ٣٧: ٣٥، مقال الدكتور يوسف خليف مجلة المجلة عدد٩٨ ص١٠٤ سنة١٩٦٥، مقال تشارلز ليال تعريب الدكتور عبد الله أحمد المهنا مجلة الشعر يوليو١٩٧٨ ، وراجع تعليق الدكتور مصطفى ناصف في قراءة ثانية لشعرنا، دار الأندلس بيروت د٠ت ص٧، ٤٩ ٠

(١) راجع الصورة في الشعر العربي د٠على البطل ص١٣

(٢) قراءة ثانية لشعرنا القديم د٠مصطفى ناصف ص٤٨: ٥٠

مهيئين، وإلا فكيف تفسر هذه النقلة الحضارية الكبيرة التي نقلها لهم الإسلام إلا إذا آمنا أنهم كان لهم رصيد ثقافي وحضارى؟

وكذلك نجاحهم في إقامة نموذج حضاري كان له تميزه وسموه، وقد حاول البعض معارضة التسمية المنعوت بها هذا العصر " الجاهلية" وتحديدها بجاهلية الدين أو السلوك التي تضاد الحلم (٢٥٩) وكيف يوصف عصر نال من النفوس العرب والمختصين منهم بالأدب واللغة خاصة – كل احترام وتقدير لدرجة أن هوَّنوا من قيمة الشاعر لمجرد ولادته بعد هذا العصر " أي بعد ظهور الإسلام"؟ (٢٦٠)

ينبغي أن ننظر لهذا الأمر بموضوعية علمية وبحياد تاريخي، فالعرب شعب ككل الشعوب له ميزاته وفيه عيوبه، وكما يقول الدكتور أحمد أمين خاضع لكل نقد علمي في عقليته ونفسيته وآدابه وتاريخه ، ككل أمة أخرى (٢٦١) وكثير من المراجع التاريخية تشير إلى معرفة العرب للكتابة في شمال الجزيرة (٢٦٢)

---

(٣) راجع مناقشة الدكتور على الجندي في تاريخ الأدب العربى دارا لمعارف مصرد٠ت ص٩: ١٢ ، مصطفى عبد الشافي الشورى الشعر الجاهلي تفسيرا أسطوريا دار المعرف مصر ١٣٨٦هـ ص١٨

(٤) تاريخ الأدب العربي كارل بروكلمان ح١ ص٣٦

(٥) فجر الإسلام د٠أحمد أمين ص٣٤

(٦) تاريخ الأدب العربي كارل بروكلمان حـ٣ ص٣٦

وامتلاكهم لأساطير ومعارف روحية وحكايات خرافية ([٢٦٣]) هذه المعرفة شكلت ثقافة عربية لها طابع إخباري يختلف عن غيره من الثقافات العالمية ساعدتهم على المحافظة على هويتهم رغم اختلاطهم بالأمم الأخرى كما ذكر الباحث أنفا ٠

وقد استدل أكثر المفسرين العرب عند تفسيرهم الآية " إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون" ([٢٦٤]) بأن كلمة أمة في الآية سنة أو ملة ودين أو الطريقة والقصد، وقال بعضهم مذهب ([٢٦٥]) وهذه الآية وآراء المفسرين فيها يدلان على تشبث العرب بما كانوا يرثون من معارف وثقافات تأصلت في نفوسهم عن آبائهم رغم آثار غيرهم الثقافية عليهم ، وأشار كثيرون إلى آثار اليهود والمسيحيين والمجوس الزنادقة وتداخلهم مع العرب حتى دان كثير من العرب بهذه الديانات([٢٦٦]) ٠

ولم تقتصر معارف العرب عند الثقافة الدينية والعلمية فحسب، بل تمتزج مخلفاتهم الثقافية بالأساطير التي ورثوها من عصور سحيقة وقد سجلت المخربشات والنقوش في المعابد القديمة ما ينم عن حياة خصبة استقطبت أساطيرهم وحكاياتهم الخرافية ([٢٦٧])

---

(١) راجع الصورة في الشعر العربي ص٣١، وراجع الحكاية الخرافية ديرلاين ص٣٩ والأساطير د٠أحمد كمال زكي ص٢٠، ٢٣

(٢) راجع تاريخ الأدب العربي كارل بروكلمان حـ١ ص٤٢، والحياة العربية للحوفى ص١٦٢ وراجع الشعر الجاهلي تطوره وخصائصه الفنية د٠بهى الدين زيان دار المعارف مصر١٩٨٢، ص٦٣

(٣) سورة الشورى آية "٢٣"

(٤) انظر تفسير القرطبي حـ٩ ص٥٨٩٤، ٥٨٩٥، والجلالين ص٤٦٢، تفسير ابن كثير حـ٤ ص١٢٦، والفخر الرازي حـ٢٤ مجلد ١٤ ص٢٧، تفسير الطبري حـ٢٥ مجلد٢٥، ص٣٧، ٣٨ ، والبيضاوي ص٦٤٩ ، الكشاف للزمخشرى حـ٣ ص٤٨٤

(٥) الحضارات السامية القديمة سبتينوموسكانى ص٢٠٥
وراجع في الأدب الجاهلي د٠طه حسين ص٧٤، ٧٥
والوسطية العربية د٠عبد الحميد إبراهيم دار المعارف مصر ١٩٧٩ ص٦٨

(٦) الشعر الجاهلي تفسيرا " أسطوريا" د٠مصطفى الشورى ص٨٥
وراجع العرب في أحقاب التاريخ أمين مدني دار المعارف مصر د٠ت ص١٥٤

وقد أرجع البعض هذه الثقافة إلى اللاوعي الجمعي الذي لا يقف بالعرب عند المرحلة الوثنية بل يمتد بهم إلى مرحلة أكثر إيغالا وأقدم وجودا ([٢٦٨]) وهذا التراث كان يظهر مندفعا منهم إلى السطح بحيث يمكن أن يشاهد ويقرأ ([٢٦٩]) ولاشك في ظهوره في نتاجهم الشعري دون وعى منهم ٠

والعرب عند مواجهتهم للإسلام ومعارضتهم له ونسبوه إلى الأساطير تهمة منهم له بأنه من الحكايات الخرافية التي تركها الأقدمون تُملى على الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم - :" وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا" ([٢٧٠])

ولو طفنا بكتب تفسير القرآن نلاحظ حديثهم عن الأسطورة أو الأسطار التي هي مفرد الأساطير وهى الأكاذيب وما سطره الأولون وأشار الفخر الرازي بأنها كأحاديث رستم واستنديار، وقال ابن كثير كتب الأوائل ([٢٧١]) وأيضا ذهب المفسرين نفس المذهب في تفسير الآية " إذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين"([٢٧٢])

---

(٧) المنهج الاسطورى في تفسير الشعر الجاهلي د٠عبد الفتاح محمد أحمد ص١٥٥

(٨) الأساطير د٠أحمد كمال زكى ص٢٦٣ ٠

(١) سورة الفرقان آية ٥

(٢) راجع تفسير الجلالين ص٣٠٠

والكشاف حـ٣ ص٨٢، والبيضاوي ص٤٧٦، والقرطبحـ٣ ص٩٧٢٠، الطبري حـ١٧

مجلـ٩ ص١٣٧، ص١٣٨ والفخر الرازي حـ٢٤ مجلـ١٢ ص٥٠، وابن كثير حـ٣ ص٣٠٩

(٣) سورة الأنفال "٣١" وراجع التفاسير سابقة الذكر حول هذه الآية

وقد اعترض د٠ مصطفى الشورى على من أنكر معرفة العرب للأساطير ([٢٧٣])
والشعر الجاهلي كديوان لمعارف العرب وأساطيرهم لابد أن يناله شئ من آثار الاتصال بغير العرب وأن يعكس ثقافات العرب أنفسهم من تراث ديني وفكرة وأسطوري وقد أشار البعض إلى أن ألفاظا أجنبية مثّلت حضارتها وأشارت إلى علاقة العرب بهذه الحضارات بدلالات مختلفة منها المحدودة ومنها الدلالات الواسعة، وقد تعدى هذا التأثير من الألفاظ إلى صورة البيان الشعري وخاصة في مجال التشبيه ([٢٧٤]) مما كان له دلالة صريحة على تأثير الشعر الجاهلي بحضارات غير العرب المجاورين لهم، والشعر الجاهلي ديوان علوم العرب فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : : كان علم قومٍ لم يكن لهم علم أصح منه " ([٢٧٥])

ويقول السيوطي عن عمرو بن العلاء عن يونس بن حبيب – مشيرا إلى حجم تراث الجاهليين " ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير" ([٢٧٦])

والشعر الجاهلي لا نستطيع أن نجزم بأنه كان تعبيراً ذاتيا محضا، فالقصيدة خبرة شعرية لإنسان عاش عصرا ما، بعد أن عاش قبله آلاف الأجيال فاكتسب من تجاربهم ودرس كثيراً من أفكارهم ([٢٧٧])

---

(٤) راجع الشعر الجاهلي تفسيراً أسطوريا ص٨٦

(٥) راجع الشعر الجاهلي تطوره وخصائصه وفنونه د٠بهى الدين زيان ص٦٦، ٦٧

(٦) طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى شرح محمود محمد شاكر
مطبعة المدني مصر د٠ت حـ١ ص٢٤، ٢٥

(١) المزهر في علوم اللغة السيوطى دار إحياء الكتب العربية القاهرة د٠ت حـ١ ص٤٧٤

(٢)شعرنا القديم رؤية عصرية د٠أحمد سويلم الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٩٧٧ص٢

وقد تغانى الشاعر الجاهلي في قصيدته فعبَّر عن ذاتهِ داخل قبيلته وامتزجت عواطفه الخاصة بأمور قبيلته العامة من حرب وسلم، وحلّ وترحال، وقد تطور هذا الشعر مع عجلة التاريخ والمجتمع، وقد حدد د٠ إبراهيم عبد الرحمن بدايتها بامرئ ألقيس إلى زهير كأي ظاهرة فكرية في أي مجتمع (٢٧٨) وعده سبتينوموسكانى أنه نتيجة لفترة طويلة من التكوين والتطور وهو ليس شعر المرحلة الأولى للتطور الأدبي (٢٧٩)

والمعتقدات الدينية والأسطورية كجزء من حياة العرب الجاهليين كان ضروريا أن تكون من روافد المضامين الأدبية في الشعر الجاهلي، وتشير المصادر التاريخية إلى غلبة الدين على سائر جوانب الحياة وهذا يتماشى مع الفلسفة التاريخية التي تفسر العالم على أنه نظام واحد يدور حول الربوبية، فتاريخ الساميين – والعرب جزء منهم – وأدبهم وفنهم كل ذلك مدين للدين في الأصل والمحتوى (٢٨٠) ٠

وتشير الدراسات إلى أن كافةِ الفنون الإنسانية نشأت في حجر الممارسات الشعائرية للفكر الديني (٢٨١)

---

(٣) الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية د٠إبراهيم عبدالرحمن ص٥٤، ٥٥

(٤) المرجع السابق ٢٢٧: ٣٢٨

(٥) الحضارات السامية القديمة سبتينوموسكاتى ص٢٠٩

(٦) راجع الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري د٠على البطل ص١٨

راجع بحث في علم الجمال – جان برتليمى ترجمة د٠أنور عبد العزيز ص ٥٧٣

ويقول فريدرش ديرلاين إن المعتقدات الأسطورية هي المضمون الوحيد لأقدم صور التأليف الادبى ([٢٨٢]) وقد أشارت الدراسات الأسطورية الحديثة إلى الصلة القائمة بين الشعر الجاهلي والممارسات الدينية الموغلة في القدم وأنَّ الشعرَ الجاهلي احتفظ بها رغم ما اعتورها من تشويه ونقص وإن لم تظهر فيه هذه الممارسات إلا أنه تأثر بنماذج فنيةٍ سابقةٍ عليه كانت أكثر اتصالاً وتعبيراً عن الطقوس منه ([٢٨٣])

وقد حاول بركلمان تحديد بداية هذه التأثيرات – " التأثيرات الأسطورية " – بأوائل شعر الهجاء كما أشار جولد زيهر، بالأغاني الصغيرة ([٢٨٤]) وإن كان هذا الكلام يشوبه الشك لصعوبة إثبات هذه الافتراضات التاريخية، ولغياب الأدلة العلمية والاكتشافات الأثرية نستطيع أن نقول: إن الشعراء الجاهلين كانوا على درجة من المهارة في التوظيف الفني لهذه الأساطير في صورهم الشعرية بشكل يفصل بين هذه الصور وأصولها الأسطورية لدى القارئ العادي ([٢٨٥]) ٠

وقد أشارت بعض الدراسات إلى ضعف واضمحلال هذه الممارسات السحرية والدينية في المجتمع الجاهلي في القرن السابق لمجئ الإسلام ، وذلك لضعف أثر الأوثان والأساطير حولها وتذبذب اليهودية والنصرانية وتقهقرها في أرض العرب ([٢٨٦]) لذا يشير

---

(١) الحكاية الخرافية فريد ريش دير لاين د٠نبيلة إبراهيم ص٢٩

(٢) راجع الصورة في الشعر العربي د٠على البطل ص١٤، ٧٤، ٩٧
وأيضاً رمز الماء في الأدب الجاهلي د٠ثناء أنس الوجود مكتبة الشباب مصر د٠ت ص٩٦

(٣) تاريخ الأدب العربي كارل بركلمان حـ١ ص٤٥، ٤٦

(٤) الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية د٠إبراهيم عبد الرحمن ص ٧١

(٥) تاريخ الأدب العربي كارل بركلمان حـ٣ ص٥٥، ٥٦
وراجع العرب والإمبراطورية العربية لبرولكلمان ص٣٧٧ نقلا عن الحياة العربية من الشعر الجاهلي وأيضا الصورة في الشعر العربي د٠على البطل ص٢٧، ١٤٧ ٠

د٠ أحمد زكى إلى أن التفسير الأسطورى للأدب والشعر بخاصة ، ما يزال فيه جوانب كثيرة لم يكشف عنها، وأشار إلى ضرورة المنهج الأسطوري وأهمية ما قدمه الرواد من شعراء ونقاد وأنثربولوجيين بشكل يوحى بأن للأسطورة اليوم دورا قد يغلب أنواع التقويم الأدبي رأسا على عقب (٢٨٧)٠

لذا يصبح من الضروري الربط بين الشعر الجاهلي ومعتقدات الجاهلين وأساطيرهم حتى نستطيع إزالة مارُمى به من مادية ومباشرة ونمطية ٠٠٠٠ الخ" هذا من ناحية الأدب، والعكس صحيح ؛ فالعلاقة جدلية بين المعتقد الديني للإنسان، وأي فن من فنونه فالفن يفسر المعتقد والمعتقد يفسر الفن وإلا سيظل كثير من الغموض والتفسير الخاطئ مسيطرين على الرؤية العربية لشعر أجدادنا – رغم ثرائه – إذا حُلنا بينه وبين أصوله المثيولوجية، وأظن أن عقلية القرنين الثاني والثالث الهجريين قد اعتلَّت بنفس الداء، وهو الفصل بين الشعر والأصول الميثولوجية له وقد اتهمت هذه العقليات ببتر هذه الآثار الوثنية من الشعر الجاهلي وبقاياها عن عمد (٢٨٨) ٠

وأغلب الظن أنهم لم يفعلوا عن عمد، بل عن قصور في الرؤية الأسطورية التي لم تكن قد اتضحت بالشكل المعاصر ، وهذه حدود إمكاناتهم التفسيرية للنص الجاهلي، ولو أسعفهم العلم أو امتد بهم العمر حتى ظهرت هذه المفاهيم الحديثة والمدارس الميثولوجية والأنثربولوجية،، والمكتشفات الأثرية، وتجارب النقد العْربية لآدابها القديمة بالمنهج الأسطوري، لكان الأمر غير ذلك، وإذا كان القرآن قد تحدث صراحة عن بعل، وسواع،

---

(٦) مجلة فصول ١ أبريل ١٩٨١ " التفسير الأسطوري للشعر القديم" للدكتور أحمد كمال زكى

١- انظر بين القديم والجديد " دراسات في الأدب والنقد" د٠ إبراهيم عبد الرحمن محمد مكتبة الشباب القاهرة ١٩٨٧ ص٨٦ ٠

ويغوث،، ويعوق، ونسر، واللات، والعزى ومناة، .... وغيرها بل وصف عبادتهم للشمس في سبأ ، ونهاهم عن ذلك بشكل تفصيلي لا يحتمل الستر أو التأويل، فكيف يقوم هؤلاء بهذه المحاولة التي ليس لها علة مقنعة لديهم في نص معروف أنه من تراث قوم غير مسلمين، وهذه الوثنيات موجودة صراحة والحديث عنها في كتاب يتعبدون بتلاوته؟!

إذن كان غياب معالم هذه الدراسة وعدم وضوحها لديهم هو سبب قصور رؤية السلف لهذا الشعر ولو اتضحت لهم هذه المعالم لقالوا غير ما ورث عنهم .

الطبيعة العربية مصدراً ميثولوجياً

وإذا كان للفكر والمعتقد أثر على الفنون، فللطبيعة أثر لا يهمل حيث إن الفنان أداة تعبير تعكس صورة ذاته متأثراً بما حوله من مؤثرات اجتماعية وفكرية، وطبيعية، والطبيعة العربية كان لها نصيب في التأثير على الأدب العربي عموما والشعر الجاهلي بشكل خاص، حيث حرارة الجو وقلة المطر وندرة النبات كان له دور في تشكيل نفسية العربي وعاداته وعلاقاته وممارساته مع غيره، إذن فللطبيعة سلطان على حياة العرب بصفة عامة وعلى الأدب بصفة خاصة.

وقد تميزت هذه الطبيعة بالحرارة الرهيبة (٢٨٩) التي تجعل الهواء حرورا ينحف الأجسام ويجفف الأدمغة (٢٩٠) ويسود الجفاف شبه الجزيرة بوجه عام (٢٩١) وقد أشار معجم البلدان إلى أن سبب تسمية تهامة بهذا الاسم هو شدة حرها وركود الرياح وقيل تَهُم الحر إذا اشتد. (٢٩٢)

---

(١) الصحراء الكبرى جورج غرستر ترجمة خيري حماد، المكتب التجاري بيروت ص١٤٦ ١٩٦١

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي دار الفكر بيروت ١٩٧٧ ط٥ حـ٢ ص٦١

(٣) مقدمة القصيدة الجاهلية في الشعر الجاهلي د.حسين عطوان دار المعارف مصر ١٩٧٠
ص٣٠ وراجع تاريخ العرب القدامى محمد فخر الدين مكتبة الطليعة لخريجي المدارس العليا مصر ١٩٣٣ ص٦٥ .
والزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره د.صلاح عبد الحافظ دار المعارف بمصر د.ت ص٤ ، وأيام العرب وآثرها في الشعر الجاهلي ، منذر الجبورى دار الشئون الثقافية بغداد٩٨٦ص٤٣، ٤٤
والإسلام والحضارة محمد كرد على ، دار الكتب مصر ١٩٣٤ ص ١٢٨
تاريخ العرب قبل الإسلام د.السيد عبد العزيز سالم مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية د.ت ٧٥

(٤) معجم البلدان ، ياقوت الحموي دار صادر بيروت د.ت حـ٢ ص٦٤
وراجع مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي د.حسين عطوان ص٣٠

(٥) تاريخ الشعوب الإسلامية كار ل بروكلمان ص١٤

وهذه الطبيعة كانت تفرض على الإنسان العربي القحط والشقاء ([٢٩٣]) بل أجبرته على نمط معين من حياة التنقل والترحال ولا تجود إلا بعد عناء ومشقة وربما لا تجود إلا بالهزيل الذي لا يسمن ولا يغنى من جوع ٠

ورغم ما تكلف الطبيعة العربية سكانها من مشاق إلا أن العربي كان شديد بوطنه وبيئته الصحراوية ([٢٩٤]) فإذا حل الجدب لجأ العرب إلى الحضر يتزودون منه ثم يؤوبون إلى صحرائهم ولا يزال ذلك دأبهم التشبث يأخذون من خيرات الحضر ويتشبثون بالبادية ٠ ([٢٩٥]) إن حياة البدوي وسط الطبيعة والتقاءه بها مباشرة جعله يعايشها ويتعبد لها ويخضع ظروفها لحياته، ([٢٩٦]) وأثرت هذه البيئة بشكل بيَّن في عاداتهم وتكوينهم الجسمي واللوني والتطلعات الاجتماعية ، وفى أمور عديدة أخرى ([٢٩٧]) وتعدى ذلك إلى التكوين الخلقي فأصبحت الصحراء دلالة على القوة والصلابة، ([٢٩٨]) فالعربي جزء من الطبيعة التي حوله ٠ هو متطرف كما أنها متطرفة، إنه عنيف إلى حد التهور يجود إلى حد التبذير ([٢٩٩]) شديد التعصب شغوف بالحرية ذو أفق غير متسع محارب ميال إلى الخصومة ([٣٠٠]) ٠

---

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي حـ٢ ص٦٦
(٢) شعر الطبيعة في الأدب العربي د٠سيد نوفل دار المعارف مصر ١٩٧٨ ص٢٨، ٢٩
وراجع الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره د٠صلاح عبد الحافظ حـ١ ص٣
(٣) الصورة في الشعر العربي د٠على البطل ص١٩١
(٤) أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي منذر الجبورى ص٤٣ نقلا عن ابن خلدون في المقدمة حـ١ ص٣٣٦، ٣٣٧
(٥) راجع مقدمة ابن خلدون ٦- الوسطية العربية د٠عبد الحميد إبراهيم ص٥١
(٧) أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي منذر الجبورى ص٤٨
(٨) الزمان والمكان وأثرها في الشاعر الجاهلي وشعره د٠صلاح عبد الحافظ حـ١ ص٤١
(٩) الطبيعة في الشعر الجاهلي د٠نورى حمودى القيسي ط٢ مكتبة النهضة العربية

كما كانت مظاهر البيئة العربية منبعاً للتصور الميثولوجى ([٣٠١]) خصوصاً ندرة أسباب الحياة وقلتها كانت سبباً من أسباب خلق أساطير وطقوس التضرع والدعاء للمطر ([٣٠٢]) وذلك لاعتماد الإنسان البدائي على هبات السماء وترقب أوامر القضاء والقدر ومعرفة العرافة، والقيافة ([٣٠٣]) والبعض ربط بين الأساطير والظواهر الطبيعية أو الجوية أو فصول السنة أو أسماء الأفلاك. ([٣٠٤]).

ولعل هذا الارتباط والفناء الشديدين مع البيئة هو الذي انتهى بهم إلى عبادة موجودات البادية كالخيل والإبل والنجوم والدبران والشعري والشمس والقمر ... إلخ

ومع تزايد سلطان الطبيعة على الإنسان الأول تطور الفكر الديني حتى اعتقد بقوة الريح، وألّه مظاهر الطبيعة كالشمس والقمر والرعد والعواصف والصواعق، واتخذ منها آله خير وآلهة شر ([٣٠٥]) هذه المظاهر كأوليات في الحياة استرعت انتباه البشر الأول وأدهشته، ولشدة نفوذها وتأثيرها في نفسه نبهت فيه فكرة الدين فعبد الطبيعة، ([٣٠٦]) والعرب الجاهليون كغيرهم من الشعوب ذات الثقافة الدنيا اعتقدوا أن الطبيعة من حولهم محوطة

بيروت١٩٨٤ ص٦٥

(١٠) الأسطورة عند العرب في الجاهلية د٠حسين الحاج حسن المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت ١٩٨٨ ص٢٧

(١١) الحكاية الخرافية فريدريش ديرلايين ترجمة د٠نبيلة إبراهيم ص٦٠

(١) تاريخ الأديان وفلسفتها ، طه الهاشمي ، دار مكتبة الحياه٠بيروت ١٩٦٣ ص١٢، ١٤

(٢) نفسه أنظر ٧٢، ٧٣، ٧٤

بقوى أعظم من قوى الإنسان، ([٣٠٧]) وكانت صحراؤهم الشاسعة منبعاً للدين الصحراوي الذي ظل زمناً طويلا موضع صراع ونزاع شديدين من العقيدة السامية الدينية الشمالية وأختها الجنوبية، والذي تطور أخيرا إلى عبادة ثالوث الشمس والقمر والزهرة، ([٣٠٨]) الذي اجتذب بعلو، وسمو، وخلوده نظر الشاعر العربي لا لمجرد دورها الجغرافي أو الميتربولوجى كإرشاد النجم في الفلوات، وإنما كممثل لقوة يمكنها التحكم في مصير الأحياء بهطول الأمطار وكمياتها ([٣٠٩]) وقد امتدت هذه الرؤية متسللة إلى المطر الذي سمو، "غيثا" وحيا" ولا شك في أن هذه التسمية مشتقة من الحياة، فإن الخصب سببها ٠([٣١٠])

ولما كان للطبيعة الأثر على الفكر الديني للإنسان على قدر تأثيرها، وسيطرتها على حياته أصبح أثرها على الإنسان العربي القديم في عصور التبدى مساعداً على تكوين تصورات تعبدية تستدعى البحث والنظر وخاصة مع العناصر التي شكلت دورا في حياة الإنسان العربي القديم: كالشمس، والقمر، والكواكب، والنار، والماء، والنخل، والخيل، والإبل ٠٠٠٠وغيرها٠

---

(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية بروكلمان ص٢٤

(٤) التاريخ العربي القديم ديلف نيلسون ترجمة فؤاد حسنين مكتبة نهضة مصر ١٩٥٨ ص٢٥٣

(٥) الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره د٠صلاح عبد الحافظ حـ١ ص٢٢

(٦) مقدمة القصيدة العربية في الشعر د٠حسين عطوا ن دار المعارف مصر ١٩٧٠ص٤٦

وراجع لسان العرب لابن منظور مادة "حيا" حـ٢ ص١٨٧ ٠

وأخبار آلهة العرب القديمة مشهورة ، فالعلاقة قوية بين الطبيعة والدين والفن وهذه العلاقة ينبغي أَلاَّتُهمل عند الحديث عن طبيعة العرب وفنهم، وإذا أهملت كانت بمثابة حلقة في سلسلة أسقطت ونظر لبعض صور الشعر التي تمثل تعاويز ([٣١١]) عند الإنسان الأول على أنها تكرار ونمطية وتقليد، وفى الغالب كان ذلك هو سبب التفسيرات السطحية والخاطئة لشعرنا القديم – أي "ضياع العلاقة بين الدين والفن" – وإذا كان الدين هو الملهم الأول والصورة الأولية للمضامين الأدبية، وهو ذاته استلهم من الطبيعة حول الإنسان الأول التي خليت فؤ ده بجمالها ورهبتها ونفعها، فإنه يلزم مراعاة هذه الحلقة عند نقد الشعر القديم وتحليله ٠

وقد طالعنا دراسات في أدبنا الجاهلي مشيرة إلى أن الطبيعة هي الملهم الأول للإنتاج الفني ([٣١٢]) وأن الشعر الجاهلي هو شعر طبيعة ([٣١٣]) وأن الشعر الجاهلي رسم صورة من الأغراض الشعرية الأخرى ، [٣١٤] – والحرب بالذات كصورة حية تعكس طبيعة حياتهم – وبعض الأقدمين ربط بين أغراض القصيدة وبين المؤثرات الخارجية في بيئتها ([٣١٥]) والبعض حتم على الناقد معرفة ما يتعلق بالبيئة الطبيعية المحيطة بالأدب ([٣١٦]) وبعض الدراسات تَعُدُ البيئة حُكماً فُرِضَ على الشاعر لا يمكن أن ينتج إلا بالتعامل مع

---

(١) راجع الحكاية الخرافية ص٢٩، وتاريخ الأدب العربي بركلمان حـ١ ص٤٥، ٤٦
، الصورة في الشعر العربي للدكتور على البطل ص١٨

(٢) راجع شعر الطبيعة في الأدب العربي د٠سيد نوفل دار المعارف مصر ١٩٧٨ ص٨، ٩، ٣٣ ، ٣٥

(٣) الوسطية العربية د٠عبدالحميد إبراهيم ص٤٨٢، وشعر الطبيعة د٠ سيد نوفل ص٢٤

(٤) أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي منذر الجبورى ص٥٢

(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق أحمد محمد شاكر دار المعارف مصر ١٩٦٦ حـ٨ ص٧٨

(٦) الشعر الجاهلي منهج دراسته وتقويمه د٠محمد النويهى الدار القومية للطباعة والنشر مصر د٠ت ص٣٠

مظاهرها والانفعال بها وقد اجتذبه بعض مظاهرها كالعلو والثبات والخلود ([٣١٧]) وأن الشاعر الجاهلي وقف أمام كل مظاهر الطبيعة رغم تكرارها بالوصف([٣١٨]) .

وفى الحقيقة أننا لا نستطيع التقليل من قيمة هذه المقولات، وهذه الدراسات عموماً قد قدمت نتائج وحقائق حول أدبنا القديم والتاريخ للطبيعة فيه، فلا نشك في أثر الطبيعة على الفن، بل هي مادته، الأولى وملهمته الأم، التي يستمد منها صورة وأخيلته، ويشير سبتينوموسكاتى الي أن الشعر الغنائي شديد الأصالة، ونقاط قوته وضعفه مستمدة معاً من .([٣١٩]) طبيعة الشعب الذي أنشده والذي كانت الصحراء موطنه وملاذه ، فقوة الشعر وضعفه متوقفة على مدى صدقه في تصوير الطبيعة حوله، وقد أعدَّ الدكتور مصطفى ناصف موطن السر في الفنون هو أن تجعل الطبيعة فكراً وتحيل الفكر طبيعة وينقل عن " شيلينج قوله :" المادة والعقل كلاهما جانب من وحدة أسمى، إذ الطبيعة روح مرئية والروح طبيعة خفية ([٣٢٠]) .

ولكن ما يؤخذ على هذه الدراسات عدم التعرض للجانب الديني في المادة الفنية، والذي يمثل حلقة وصل بين الطبيعة والفن، وهى سلسلة من هذه الحلقات الثلاث، إذا أهملت حلقة الدين أحُيل بين الطبيعة والفن وكان تفسير الشعر بمعزل عن أصوله الميثولوجية خطرا ربما اتهم الشعر الجاهلي لهذا السبب بكثير من الاتهامات غير الحقيقة، وإنَّ شعرا يقرأ بمعزل عن أصل من أصوله يكون عرضةً للتشويه، وقد حذَّر الرواد في مجال

---

(٧) الزمان والمكان وأثرهما في الشاعر الجاهلي وشعره د٠صلاح عبد الحافظ حـ١ من التمهيد ص١٠، ١١

(٨) قراءة جديدة لشعرنا القديم صلاح عبد الصبور نقلا عن الزمان والمكان د٠صلاح عبد الحافظ ص١٦ ٠

(١) الحضارات السامية القديمة سبتينوموسكاتى ص٢١١

(٢) الصورة الأدبية دراسات فى الأدب والنقد د٠مصطفى ناصف دار مصر للطباعة مصر ١٩٥٨ ص٢٧

النقد من قراءة القصيدة الجاهلية منعزلةً عن كل ما كان سبباً في نشأتها، لأن ذلك لا يؤدى إلى فهمها، بل العكس قد يغلِّفها بغموض شديد ([٣٢١]) ؛ لأن هذا الشعر بقيمه العالية ميراث بيئة قطعت شوطاً في التطور يحتاج إلى دراسات تحليلية ترصد مقوماته الفنية وتكشف عن قضاياه المختلفة.

والأشياء التي تميز شعر الجاهليين والناتجة عن لا وعيهم ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ، وتظهر دون قصد منهم في نتاجهم الشعري من حين إلى حين مندفعة إلى السطح يمكن أن تشاهدَ وتقرأ ([٣٢٢])

إذن من الضروري عند تفسير الشعر الجاهلي وتحليله الرجوع إلى قضاياه، وأصوله الميثولوجية القديمة؛ حتى لا يقع مفسره في سطحية التفسير، واتهام هذا التراث العريق؛ لأن الشاعر الجاهلي عبَّر من خلال صوره عن قضاياه وأحاسيسه ومواقفه من الناس حوله بشكل رمزي أكثر من التعبير المباشر، حتى أصبح الشعر لديهم بناء لغوياً مجازياً حافلاً بالرموز والمعاني التي تقودنا لو فهمناها إلى الكشف عن التوترات المختلفة التي تحكم عالم الشعر، وما يتصل به المواقف والقضايا؛ لذا حتم المنهج الاسطورى على من يريد فهم هذا الشعرَ أن يفهم هذا الأسلوب التصويري ويحلل صوره المركزة تحليلاً يكشف أولا عن أصولها الميثولوجية([٣٢٣]) وينصح بقراءة الشعر الجاهلي قراءة جديدة للكشف عن خبايا هذا

---

(٣) الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية د٠إبراهيم عبد الرحمن ص٢٤٦

(٤) نفسه ص٢٦٢

(٥) الشعر الجاهلي تفسيرا " أسطوريا" ص١١٨

(٦) نفسه ص١١٨ نقلا عن الأساطير للدكتور أحمد كمال زكى ص٢٦٣ ٠

(١) الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية د٠إبراهيم عبد الرحمن محمد ص٢٦٨

العالم الاسطوري الذي انبثقت فيه هذه الميثولوجيا الدينية عند العرب، وهو فكر معقد تعقيداً شديداً؛ لأنه مزيج من روافد، عناصرها المختلفة تتجمع من الديانات القديمة وثنية، وموحدة تجمعت في مجرى واحد هو مثيولوجيا الوثنية الجاهلية (٣٢٤) وهذه القراءة الجديدة أظنها تحتاج لجرأة البحث وموضوعية العلم من غير افتراء لتشويه شئ ما أو إخفاء شئ لتعليل آخر: "وإن من الإثم وتعمد الجهل أن نتكلف إخفاء ناحية من النواحي الأدبية، ربما كانت أحق من غيرها أن تدرس ويعنى بها الباحثون، وما كان لي ولن يكون لأحد من الباحثين الذين يقدرون العلم وكرامته أن نغير التاريخ أو أن نظهر عصراً من عصور الأمة العربية على غير ما كان عليه" (٣٢٥) ووجهة الباحث الحق أن يدرس ويستنبط لا أن يستهجن ويبرر لأن الدراسة يجب أن تقوم على إيراد ما كان يعتقده العرب وهذا أولى من نقد ما كانوا يعتقدون (٣٢٦) .

(٢) بين القديم والجديد دراسات في النقد الادبى د. إبراهيم عبد الرحمن محمد ص٤٨، ٤٩

(٣) حديث الأربعاء د.طه حسين دار المعارف مصر ١٩٨٢ حـ١ ص٨ طبعة١٣

(٤) الحياة العربية من الشعر الجاهلي د.أحمد محمد الحوفى ص٣٧٠

على أن الباحث في هذا المجال سوف يلاقى كثيراً من الصعوبات منها أن التوصل إلى الديانات العربية قبل الإسلام ليس من السهل ([٣٢٧]) وذلك لغياب التاريخ لهذه الفترات بشكل موثق، وغياب المكتشفات الأثرية المعينة على معرفة هذه الأصول الدينية علاوة على تعد مظانّ الحقائق وتشتت جوانب الدراسة بين الجانب النظري، والجانب التاريخي، والجانب التطبيقي مما يحمل خطر التشتت ([٣٢٨]) ٠

ومن العوامل التي أشار إليها الدكتور إبراهيم عبد الرحمن في الأدب الجاهلي نفسه هو أن الألفة وكثرة الاستعمال قطعت كل ما كان بين هذه الصور في الشعر الجاهلي وأصولها الميثولوجية من صلة ([٣٢٩]) ٠

وظاهرة النار أو النور- كإحدى الظواهر الطبيعية قد احتلت مساحة كبيرة في ميثولوجيا الإنسان الأول عموما والعربي على وجه الخصوصً، في صورة شملت جوانب كثيرة من حياته، تستهدف منها مجال الشعر في المرحلة الجاهلية للكشف عن مدى الارتباط بين الأصول الدينية لظاهرة النار، وصور الشعر الجاهلي ومدى عمق الظواهر الأدبية في التاريخ الثقافي والديني لمنشئ هذا الأدب ٠

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام حـ٦ ص١١: ١٥

(٢) الصورة في الشعر العربي د٠على البطل ص٦

وراجع المنهج الاسطورى في تفسير الشعر الجاهلي للدكتور عبد الفتاح محمد أحمد ص١٥٣

(٣) الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية د٠إبراهيم عبد الرحمن ص٢٧٥، ٢٧٦